

مُشَاهِدَاتِي

في بيت العلامة الإمام ربيع بن هادي المدخلي - حفظه الله -

«رمضان: 1439 هـ / 2018 م»

ويتضمّن موقف الشيخ ربيع من شيوخ التفريق

وطريقته - وفقه الله - في معالجة فتنهم

لأبي معاذ محمد مرابط

- عفا الله عنه -

تراجمر الكبار وأخبار الأخبار فيها
فوائد جمّة ومنافع مهمّة، منها الإطلاع
على مناقبهم وأوصافهم ونباهتهم
وجلالتهم ليحصل التأدب بآدابهم
والتخلق بأخلاقهم فيحشر في زمرةهم
ويدخل فيهم وإن لم يكن منهم

عبد الحي اللكنوي

«الفوائد البهية ص: 2 بتصرف»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، وصلى الله وبارك وسلم على نبيه ومصطفاه، نبينا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الأخيار المُتَجَبِّين، وعلى أتباعهم ومن اقتفى آثارهم إلى يوم الدين، صلاةً وسلاماً دائمين ما طلعت شمس من مشرقها، وما تَلَأَتْ أنجمٌ في سماءِها، أما بعد:

فإن الناظر في حياة العلماء، والمتأمل في سيرهم وكيف كانت معاشيهم، يجد عقب النبوة يفوح من تلك الصفحات البهيات، لأنهم ورثة الأنبياء وخلفاء المرسلين، وبهذا صحَّ الخبر، وعليه أجمع أهل الأثر، فقد روى «أبو داود 3641» وغيره عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر»، وقد اختصَّ الله علماء الإسلام بفضل زائد، فجعلهم ورثة خاتم المرسلين، فأقامهم في مقامات التبليغ، ورفعهم على منابر الإرشاد، وتركهم في الأمة وهو يعلم سبحانه أنه لا نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول الخطيب البغدادي رحمته الله في «الفقيه والمتفقه» 54: «واكتفى بهم عن بعثة نبي وإرسال نذير»، فأَيُّ حُظوة نالها هؤلاء الأخيار؟! وأيُّ فضل لحقهم؟! جعلنا الله ممَّن اقتفى آثارهم الزكية وانتفع بسيرهم الرضيّة.

وإنَّ من أعظم المنافع التي نجنيتها من قراءة تراجم ورثة الأنبياء معالجة أخطر الأمراض الفتّاكة التي أُماتت الكثير من المُتَسَبِّين للعلم والدعوة، كالتطاول والتعالم والاعتداد بالنفس، قال حمدون القصّار رحمته الله كما في «الاعتصام

1 / 127: «من نظر في سير السلف عرف تقصيره وتخلفه عن درجات الرجال»، وهي حقيقة ذاق طعمها من وفق لمجالسة أئمة العصر، وأتيحت له الفرصة فنهل من معين أدبهم وأخلاقهم، وكان ذلك سببا في معرفته لقدره وقدر من يحيط به من طلبة العلم والدعاة، وقد تنعكس المسألة فتكون معرفة المُتعالَم سببا في معرفة قدر العالم ففي أول لقاء تميّز الرتب وتباين المنازل، وقد قيل: فالضدّ يُظهر حسنه الضدّ، وعندما غابت هذه المقارنات حلّت بالأئمة الفتن ونزلت على المسلمين المصائب، واختلط الحابل بالنابل وركب الدخلاء أمواج العلم والدعوة واغترّ بزيف أقوالهم السواد الأعظم، وفي مقابل ذلك أبعد العلماء والأئمة عن ميادين الدعوة بطرق خبيثة متنوعة، والله المستعان.

وإنّ من هؤلاء الأشراف: إمام السنّة في عصره، وحامل لواء الجرح والتعديل في وقته، وحيد دهره ونسيج عصره، من أحيا الله به في هذا الزمن السنن، وأمات به البدع، وجعله ناصرا للمظلومين قامعا للظالمين، الشيخ العلامة ربيع بن هادي المدخلي - حفظه الله - ومتّع الإسلام والمسلمين بحياته، ولمّا كان هذا الشيخ الجليل من جملة ورثة الأنبياء عليهم السلام، وكان بتلك المنزلة العليّة، وتيقّنت الفائدة من سرد أخباره - ولو نُتفأ منها يسيرة - عزمْتُ على رواية أخبار ما رأْتُ عيني، وإسناد أنباء ما سمعت أُذني، واقتصرْتُ على أحداث سفرتي الأخيرة إلى بلاد الحرمين والتي كانت بتاريخ: «18 رمضان 1439 هـ الموافقة لـ

02/06/2018م»، وانتهت يوم: «17 شوال 1439هـ، الموافق لـ 02/07/2018 م».

وقبل الشروع في مضمون المقالة، أنبّه القارئ على أمور مهمّة:

أولاً: لن أعتد في ترتيب الفوائد والمرويات على التسلسل الزمني، ولن أذكر التاريخ إلا فيما دعت إليه الحاجة.

ثانياً: قد أروي بالمعنى -في مناسبات قليلة- أقوال الشيخ -حفظه الله- وأقوال غيره ممّن لقيتهم، ولن أخلّ -إن شاء الله- بالمقصود ولن أحرّف المعاني التي أرادها أصحابها.

ثالثاً: قسّمتُ كلّ الأخبار وجعلتها فصولاً، وجعلتُ لكلّ فصل عنواناً مناسباً يميّزه عن غيره ويسهّل على القارئ الرجوع إليه من خلال الفهرس.

رابعاً: علّقت على كلّ حادثة بما يوضّح معناها، ويظهر المغزى منها، وربطت في الكثير من الأحيان بين هذه الحوادث وبين ما نراه اليوم من أحداث هذه الفتنة المدمّرة.

خامساً: أهتمّ -في بعض المواضع- بعض الأسماء لعدّة أسباب، منها ما يلحق البعض من حرج، وأحياناً تسترّ على الرجل، ولعلّ الله يرزقه الهداية.

أسأل الله أن يلهمني رشدي، وأن يسدّد قلبي ولساني وقلمي، وأسأله سبحانه أن يجعل هذه الكتابة في ميزان حسناتي، وأن يعلي بها كلمة الحق.

زيارة عجيبة في فترة عصيبة

في يوم: «2017 / 11 / 19»، حذّر منّي «جمعة» ونطق في حقي بكلام بذيء، وكلمات نابية، فانبرى بعض فضلاء البلاد من رجال السنّة للدفاع عنيّ، وعلى رأسهم المشايخ الفضلاء: حسن بوقليل، وخالد حمودة ومصطفى قالية - حفظهم الله-، فنالتهم غضبة الرجل، فحذّر منهم جميعاً، وكان ذنبي الوحيد أنّي رفضت مطاعنه في مشايخ الإصلاح، وطالبته بالأدلة بعدما حاول تجنيدي في معسكره، واجتهد في استمالي لأكون من جُنْدِه المدافعين عنه وعن جماعته، والرايّين على علماء البلاد ممّن أراد هو وجماعته إسقاطهم ومحوهم من خارطة الدعوة، والنيل من أعراضهم بالتهم الفاجرة.

وبعد الحادثة بأيّام قليلة زار جُمعة العلامة ربيع وعرض عليه كتابته: «رسالة إلى خالد حمّودة ومن كان على شاكلته»، فخرج من عنده مُدّعياً أنّ الشيخ ربيعاً قرأها وأذن بنشرها، فتساقط الناس زُرّافات ووُحدانا في فخّه، ونقلوا عن الشيخ ربيع أنّه يحذّر منّا ويؤيّد جمعة، لكنّ الله نصر عباده المظلومين، فعرف الشيخ ربيع الحقيقة ووقف على تفاصيل القضية، وصدع بالحق في وجوه المفرّقين، وهذا الذي أثارهم وهيج أتباعهم، فصاروا يتوافدون على بيت الشيخ لعلّ الشيخ يغيّر رأيه بتليساتهم، وبما كانوا يحملونه للشيخ من ملفّات وحقائق تديننا وتدين مشايخ الإصلاح في زعمهم، فكان جمعة يرسل أتباعه لاسيما شباب المدينة من

المقيمين والمتخلفين إلى بيت الشيخ بعدما يلقنهم ما يعرضونه على الشيخ، وبقيت الأمور تمشي على هذه الوتيرة لمدة طويلة.

وسافر مشايخ الإصلاح إلى بلاد الحرمين، وسافر كذلك أخي الشيخ خالد حمودة ودخلوا على الشيخ وسمع منهم وسمعوا منه، وهذا أوقع المفرقين في حيص بيص، ودفعهم إلى تكثيف الهجمات وتصعيد اللهجة، وهي الفترة الشديدة التي سافرت فيها إلى بلاد الحرمين.

في ليلة: «29/ رمضان/ 1439 هـ، الموافقة لـ 13 / 06 / 2018 م»، زرتُ بيتَ العلامة ربيع السنة -حفظه الله- ودخلتُ عليه بفضل الله لأول مرة بعد انقطاع دام خمس سنوات كاملة، ثم بقيتُ أتردد على بيته طيلة المدة التي أقمت فيها في المدينة النبوية، وقد جمعني بالشيخ -حفظه الله- «خمسة عشر 15 مجلسا»، في هذه السفرية، وهذا معدّل ما كان يجمعني به -حفظه الله- في كلّ سفر، منذ سنوات طويلة، أقول هذا -يعلم الله- ردّا على من شكّك في كلام الشيخ، وزعم أنّ الشيخ صار يزكّي من لا يعرف! وبئس ما قالوا.

ومن عجائب الدهر: أنّ زيارة العلامة ربيع أضحت عند أتباع ابن هادي دليل انحراف، وقرينة توجب التشكيك في الرجل، وقد رأينا ورأى الجميع كيف التقط متعصبة المفرقين صوراً لمشايخ الإصلاح أمام بيت الشيخ ربيع وكأنهم زاروا سفراً الحوالي أو سلمان العودة! وأهل المدينة قد نالهم من مطاعن القوم الشيء الكثير فقد أخبرني أحدهم أنّه وجد نفسه مهجوراً محذراً منه وهو لا يعلم سبب

ذلك فلما تشجع وسأل رأسا من رؤوسهم قال له: لاحظنا عليك كثرة الدخول على الشيخ ربيع! وقد رأيت بنفسي امتعاضهم من زيارتي حتى قال أحدهم وكتب: مرابط نصّب خيمة عند الشيخ ربيع! والله المستعان.

إنّ التضايق من زيارة الشيخ ربيع هو طريق أهل البدع والأهواء، وما من أحد منهم على مرّ السنين إلا وهو معرض بزيارة السلفيين للشيخ ربيع أو مصرح بالسخرية منهم، مثل ما قالوا: الذي يحج ولا يزور الشيخ ربيع فحجه باطل، وقد أجاب ابن هادي عن هذا الكلام يوم أن كان على الجادة بأحسن جواب كما في كلمته «الحق أبلج» والتي ألقاها يوم: «16 ذي الحجة 1434 هـ» قال: «ولا شك أن الذي يقول مثل هذا القول إنما أراد السخرية بالسلفيين وبأهل السنة، وأراد بهذا تشويه صورتهم، وأراد بذلك التّفير عن علماء السنة»، وبعد أن أشاد بجهود الشيخ وبيّن مكانته بين أهل السنة قال: «فمن كان مثل هذا يُحرّص على لُقيّه؟ أو لا يُحرّص؟ بلى والله يُحرّص لأنّه علّم من أعلام السنة في هذا العصر!» ثم قال: «إنّ السّلفي والسني إذا قدّم على مكّة لأداء حجّ أو عمرة، فإنّ من أعظم مطالبه بعد أداء هذه الفريضة أو النافلة لمن كان قد أدّاهما فمن أعظم مطالبه أن يرى هذا الشيخ الجليل القائم في نصرة دين الله المقام الذي نعرفه»، فما الذي تغيّر عند هؤلاء حتى يجعلوا زيارة الشيخ الآن من أخس المطالب وليس من أعظمها؟! وهل يريد منّا هؤلاء أن ننقطع عن زيارة الشيخ كما فعلوا هم، وكما فعل رؤوسهم؟! لهذا كل عاقل يسألهم ما سبب هذا الانقطاع؟ أليست هي أشياء في النفوس؟ ألم يقل ابن هادي

في نفس الكلمة: «من يقيم بمكة أسبوع وعشرة أيام ولا يستطيع الذهاب إلى الشيخ ربيع ويقول أنا سلفي نقول: ما الذي منعه؟ ما وجدت أعذار صحيحة عنده ما الذي منعه؟ إلا شيء في النفس لا شك ولا ريب»، ونحن نقول: والله ما انقطعتم عن الشيخ إلا لأنه عارض باطلكم وكشف فسادكم فتحاملتم عليه!

إن التشنيع على السلفيين، والاعتراض على زيارتهم للإمام ربيع ليس وليد اليوم، بل سبق إلى هذه الوظيفة فئام من خصوم أهل السنة، وإنما اختلفت عباراتهم وتنوعت أساليب خطاباتهم، وهذا ابن هادي يشهد ويقول في نفس الكلمة: «وقد يقول إنسان بعد ذلك أكثر من هذا القول وهذا لا يضره ولا يضرنا نحن بإذن الله معاصر السلفيين فإن هذا من الكذب الذي انتشر في هذه الآونة واشتهر وليس هو ابن اليوم بل هو قديم قاله أبو الحسن... وقاله عليّ حسن... وسيستمر هذا وأمثاله، ولكن العبارة قد لا تكون هي واحدة تكون مختلفة بعضها أخف من بعض والمعنى واحد، المؤدّى هو تشويه السلفيين»، وأقول لابن هادي: حتى علي الحلبي كان ينكر ما أنكرته، وقد سمعته يقول قديماً: «كان يقال الذي يزور مكة ولا يزور الشيخ ربيع، كمن يزور الأردن ولا يزور الألباني».

إن موقف المفرّقين من زوّار بيت الشيخ ربيع -حفظه الله- لينبئ عن أشياء خطيرة كامنة في النفوس، وأمراض متفشية في ساحة هؤلاء، لذلك انتقلوا بسرعة فائقة إلى مرحلة متقدمة من حربهم على الشيخ ومحبيه، ففجروا في الخصومة إلى درجة أنهم اعتدوا باللسان واليد على ضيوف الشيخ!

صحّة الشيخ

مما لا يختلف فيه كلّ من عرف الشيخ عن قرب، أنّه -حفظه الله- شديد العناية بنفسه، حريص على صحّته، فهو محافظ على طعامه الصحيّ مهتمّ بدوائه لا يغفل عنه أبداً، وهذا ما رأيته بنفسى طيلة السنين الماضية، وحتى الخفّ والجوارب لا تفارق قدمه، وغيرها من الأسباب الصحيّة التي يعرفها من ابتلي بنفس الأمراض التي يعاني منها الشيخ -عافاه الله-، ولا ننسى العائلة الكريمة والأبناء البررة فهم السبب المباشر -والفضل يعود إليهم بعد الله- في بقاء الشيخ منعمًا بصحّته، فقد رأينا عجباً من صنائعهم مع والدهم، ومن ذلك توفيرهم لسرير طبيّ استراح به الشيخ كثيراً، وقد خطر على بالي الآن هذا الموضوع عندما تذكرت صوتية بوق جمعة «موسى القليعي» التي سجّلها بعد خروجه من بيت الشيخ ربيع وذكر فيها أنّ الشيخ مريض وهو ينام على «نقالة المرضى» وهي تعرف عندنا بـ «بلونكار» وهذا كذب وتحريف للواقع، فالشيخ ينام على سرير طبيّ متطور وليس نقالة المرضى المعروفة التي تستعمل في نقل المرضى من سيارات الإسعاف إلى المستشفى أو نقلهم داخل المستشفى من غرفة إلى غرفة، وقد رأيت الشيخ يستعمله قبل خمس سنوات في مكّة، وهذا دليل قاطع يثبت لنا أنّ أكثر هؤلاء الشباب لا يعرفون الشيخ وأنّ زيارتهم الأخيرة هي أوّل زيارة لبيت الشيخ وإلاّ كيف تعجبوا من قصة السرير؟! أم أنّهم يكذبون ويتحرّون الكذب؟! بكلّ صدق وصراحة لقد أتعبنا هؤلاء بخرجاتهم فلم نعد نفهم ما يدور في أذهانهم.

عائلة الشيخ كرم وضيافة! عقل وظرافة

أول ما تنجذب إليه النفس عند دخول بيت والدنا وإمامنا هي تلك العائلة الكريمة التي سخرها الله تبارك وتعالى لرعاية حامل لواء الجرح والتعديل الصالح المصلح ربيع بن هادي -حفظه الله-، وليست هذه العناية وليدة اليوم بل هي ضاربة في القدم، لكن ازداد خيرها وظهرت بركتها أكثر في هذا الظرف العصيب الذي يمرّ به أهل السنة، فمن منّا يتحمّل -أيّها العقلاء- استضافة واستقبال مئات الزوار؟! وأكثرهم تنقلوا لحلّ مشاكلهم وطرحها على الشيخ فليست مجرد زيارة وديّة والله المستعان، سمعني عمر بن ربيع -حفظه الله- وأنا أتحدث عن هذه الفضيلة مبدئياً تعجبي من صبر العائلة، فقال: «لا تعجب لقد ألفنا هذا فأنا منذ كان في عمري ثماني سنوات وأنا أستقبل الضيوف!»، رأيت أحد كبار السن لا أعرفه وهو من أقارب الشيخ يقف بين المفرقين وهم في هيجان لا مثيل له، فقلت الرجل سينتفض، فوالله بقي هادئاً، ولم ينطق إلا بكلمة متعلقة بالموضوع، فعلمت أن نفس الشيخ ربيع قد سرى إلى هؤلاء الكرام، جلستُ مع أحد أبناء الشيخ ربيع وهو شبيبة، كبير في السن عرفني به الأستاذ عمر، فجاذبته أطراف الحديث فتلذذ سمعي بحديثه وانبهرتُ من سداد رأيه، ومما ذكره لي في المجلس قال: «رأيتم في منتدى القسطاس قد ذكرتُم أنّ المخالف للشروط سيتم طرده، وأنا رأيي أن غيّرُوا العبارة وتلطّفُوا الجملة فالطرد مما لا تستحسنه الأسماع وقولوا مثلاً: سيتم إعفاؤه أو ما يشبه هذا»، قلت في نفسي: الكثير ممن اشتهروا بالدعوة والعلم ليس

بمقدورهم إعطاء مثل هذا الرأي الموفق السديد! فله درّ هذا الفاضل ومّا أكّد لي فضل هذا الرجل أنّني كتبت يومها منشورا عن أول زيارتي ذكرت فيه هذا الحادثة فرفض أن أذكر اسمه وهذه سمة بارزة في أبناء الشيخ، فهذا العزيز عمر بن ربيع يمنع الإخوة من ذكره وذكر ما وقفوا عليه من محاسنه ومواقفه المشرفة ولولا ذاك لرأى القراء عجائب القصص التي تحكي صنائع هؤلاء النبلاء.

أذكر جيّدا «ليلة الطرابلسي» التي هجم فيها الثوار على بيت الشيخ ربيع، وكأنّ الصورة ماثلة الآن بين عيني! كيف كان عمر بن ربيع يحاول تقبيل رأس الطفل بشير الطرابلسي وهو يترجّاه أن يُنهي النقاش! وكان يعدّه بأنّه سيُدخله مرّة أخرى ويتركه يتكلم مع الشيخ كيف يشاء! فبأي حق يطعن في هذا الرجل الشهم؟! وبأي عقل ينال من عرضه وهو الذي فتح لهم الباب وهم يعلمون جيّدا أنّه لو كان غير عمر لما دخلوا! كيف سمحت لهم نفوسهم أن يكتموا الحقيقة؟ ألم يتذكروا أن عمر كان يدخلهم أولا قبل كل الناس؟ ويتركهم وقتا طويلا يتحدثون مع الشيخ والضيوف ينتظرون وعادة من يدخل للسلام والسؤال يمكث دقائق معدودة ثم يخرج أما أولئك المتعصبة فأخرجهم يجلس نصف ساعة مع الشيخ! والعجيب أنهم يرجعون في الليلة الموالية ويُدخلهم مرة أخرى عمر، مع أنّه وقف على منشوراتهم السيئة التي كتبوها بعد خروجهم من عند الشيخ.

ومن خلال النبيلة التي برزت عند هذه العائلة الكريمة: حفظ السرّ وكتمانه! فإذا دخلت البيت وحدثت واحدا منهم فحديثك محفوظ، ومن قرأ بيان عمر بن ربيع

الذي كتبه رداً على جمعة وتأمل في تلك الحقائق يتعجب من تكتم هذا الرجل، فأحداث مرّت عليها الشهور لم يتكلّم بها وعن نفسي -والله- لم أسمعها منه ولم تبلغني إلا من خلال البيان، وأذكر يوم أن دخل لزهر سنيقرة على الشيخ ربيع كيف اتّصل بي عمر وأشاد بالرجل وحثني على زيارته! ولو كان منحازاً كما يريد المفرقة الترويج له لحدّثني بتفاصيل الزيارة وما صدر من لزهر في حقنا في ذلك المجلس، لكن مروءة الرجل أبت عليه ذلك، ويعلم الله أنّ بعض الرؤوس رفض الشيخ ربيع استقبالهم ولم يدخلوا على الشيخ إلا بعد شفاعة عمر -وفقه الله- فهل جزاء الإحسان أيها المتنكرون إلا الإحسان؟!

إنّ الحقيقة التي يجهلها الكثير من الناس أنّ الأخ الفاضل عمر بن ربيع ترك أشغاله وأعماله وتفرّغ لخدمة السلفيين وحلّ مشاكلهم، حتّى خيل لكثير منّا لشدة ملازمته بيت أبيه أنّه يسكن معه في نفس السكن! مع أنّه يسكن بعيداً عن الشيخ، أسأل الله أن يكتب له الأجر الجزيل وأن يثيبه على وقوفه مع إخوانه في هذه الفتنة التي ألّمت بأهل السنة، وأغرب ما سُمع في هذا الموضوع قول الجهلة ممّن انتقد عمر في كلامه واستنكأهم كيف يتكلّم في المجالس أو يتدخّل! بل سمعت بأذني شاباً متعصّباً يقول لعمر: لا ترفع صوتك! فيا لله العجب كيف لا يتكلّم وهو في بيته؟! وكيف لا يرفع صوته كذلك وهو ينظر بأمّ عينيه إلى سوء أدبكم مع والده ويستمتع بأذنه إلى مطاعنكم الغادرة في الأبرياء وقد كان شاهداً على بطلان مزاعمكم ومحاولتكم الفاشلة في مخادعة الشيخ؟!

لقد رأيت هذا الرجل الشهم يتكلم في حضرة المُصَعْفَقَة ويقيم عليهم الحجة برفق ولين، وكنت متعجبا من صمتهم أمامه! وكان يقول لهم دائما: «هل ذنبي أنني أعملتُ عقلي وقرأتُ وسمعتُ للطرفين؟!»، وكان يقول لهم أيضا: «أنتم شباب الواجب عليكم سؤال الشيخ والاستفادة من علمه وحكمه في هذه المسائل أما المناقشة وتعليم الشيخ فهذا لا يليق بكم، فلا تتعبوا أنفسكم لأن شيوخكم دخلوا على الشيخ وبيّنوا كل ما عندهم»، ومن فضائله ومحاسنه أنه -وفقه الله- كان ينبّه دائما ويقول: «من أساء الأدب في بيت الشيخ لا يمثل الجزائريين لأنهم أهل نخوة وشهامة»، ورأيتُه إذا تَفَطَّنَ للرجل أنه يكتب في وسائل التواصل منتصرا للمفرقين وطاعنا في الأبرياء بما فيهم عمر، يقدّمه على غيره ويُدخله على الشيخ ويفتح له باب النقاش والجلوس عند الشيخ أكثر من غيره! فأني تحمّل أكثر من هذا.

ولا يفوتني أن أنبّه على أخلاق الأحفاد كذلك! فتراهم يدخلون على الضيوف بالشاي والقهوة ساعين في خدمة الجدّ ربيع السنة من غير أن تسمع كلمة منهم أو تراهم يشاركون في النقاشات! وقد انتبهت إلى بعضهم وقد غلبه النعاس وهو ينتظر خروج الضيوف من البيت وقد أشغلهم حديثهم إلى ساعة متأخرة من الليل! فهل يستقيم -عقلا- أن نسيء إلى أمثال هؤلاء الأخيار؟! وهل يجوز شرعا أن نقابل فضائلهم بالكذب والطعن؟! أسأل الله رب العرش العظيم باسمه الأعظم أن يعلي منازلهم ويرفع ذكرهم، وأن يجمعنا وإياهم في جنّاته تحت لواء نبينا محمد ﷺ، جزاء ما قدّموا للسلفيين في هذا الزمن العصيب.

أنا لست باطنياً

جلستُ يوماً بِجَنبِ العَلامَةِ ربيعِ السُّنَّةِ - حفظه الله - وهو يناقش بعض المُفَرِّقِينَ، فلمَّا عجزوا عن مقارعة هذا الأسد الهصور، حاول أحدهم أن يُخلّصهم مِن مَآزِقِهِم فقال: «يا شيخ أنتَ حَكَمْتَ بِالظَّاهِرِ، وأنتَ مَعذُورٌ فِي ذَلِكَ»، ولك أن تَتَصَوَّرَ أَخِي القارئ كيفَ كان جواب هذا الصَّيرِفي الحاذق؟ وهو من أَجَلِّ الأَجوبة المُسَكِّتة التي سمعتها من الشيخ وعمد المفرقون إلى إخفائها، قال الشيخ - حفظه الله - وقد سمعته بِأُذُنِي - وأنا جالسٌ أَمَامَهُ -: «الحمد لله أنا لستُ باطنياً، وقد شَهِدْتُ أَنَّ الظَّاهِرَ يَكْفِينِي» ثم سكت الشيخ، أمَّا السائل المسكين فلم يجد إلَّا الصَّمْتَ مَلاذًا، وبدأت على وجهه علامة الحيرة! وعجزوا أَمَامَ الشيخ كما عَجَزَ شيوخُهُم فلله درّه من شيخ طيب النفس وإمام رحيم القلب، فقد سدَّ عليهم كُلَّ المَسالِكِ واجتهد في تخليصهم من تلك المهالك!

وقد تعجبتُ وتأسَّفتُ في نفس الوقت: كيف يُرمى هذا البحر بالفَوَاقِر الشَّديدة؟! ويُقال عنه بآنه سَيِّقَةٌ، وبِطَانَتِهِ مُجرِمة، ويُزعمُ أَنَّهُ مريض لا يَعِي ما يَجري حَوْلَهُ! والسَّوَالُ المُحِيرُ: كيفَ يَدْخُلُ رَجُلٌ يَدَّعي السُّلْفيَّةَ إلى بَيْتِ هذا الإمامِ ثمَّ لا يَنْتَفِعُ بِكَلَامِهِ؟! بل يَكْتُمُ مِثْلَ هَذِهِ الدُّرَرِ الغَالِيَةِ، وَيَدَّعي أَنَّهُ نَاقَشَ الشيخَ وَأقامَ عَلَيْهِ الحُجَّةَ؟! ثمَّ يُقالُ لَهُم: بما أَنَّكُمْ عَرَفْتُمْ أَنَّ الشيخَ حَكَمَ بِالظَّاهِرِ فَلِمَ إِذَا طَعَنْتُمْ فِيهِ وَلَمْ تَعْذِرُوهُ؟! وهنا سَؤال: هل من ضابط في المسألة لنفِرق بين حُكْمِ الشيخ على حَسَبِ الظَّاهِرِ وبين حُكْمِهِ بِمُقْتَضَى الظَّاهِرِ والباطن؟! فنردُّ الأول ونقبل الثاني.

شدة تعلقه بالتعليم حتى في زمن الفتن!

الكثير لا يعرف أنّ الشيخ ربيعاً في هذه الأيام العصيبة، وفي تلك الساعات التي يتوافد فيها الناس على بيته - ومنهم أصحاب الفتن - كانت له مجالس في «صحيح البخاري»، يشرح فيها ويُعلّق على أحاديث البخاري، وقد وقّني الله لحضور عشرة مجالس منها، سبحان الله كلّما نظرت إلى الشيخ تذكّرت الإمام أحمد وما أثر عنه، قال محمد الصائغ رحمه الله كما في «مناقب أحمد 42»: «مرّ بنا أحمد بن حنبل وهو يعدو ونعلاه في يده، فأخذ أبي هكذا بمجامع ثوبه فقال: يا أبا عبد الله، ألا تستحيي؟! إلى متى تعدو مع هؤلاء الصبيان؟! فقال: إلى الموت»، لقد جسّد الإمام ربيع هذه القصص في حياته تجسيدا رائعا، فلا يكاد يُرى - حفظه الله - إلا معلّما أو متعلّما، قارئاً مستفيداً أو مُستمِعا شارحاً، ومثله عادةً يترك القراءة والمطالعة، وهي ظاهرة مسّت حتى صغار طلبة العلم، فالكثير منهم يقتنع بما حصّله من العلم فينتقل سريعا إلى مرحلة التعليم والعطاء ويترك التحصيل! وهذا صنيع أصحاب الهمم الضعيفة، أمّا أمثال هذا الإمام فنفسهم الزكية كلّما مرّ يوم من أيّامهم إلا ازدادت شوقا للنظر في الكتب، فلم تُلههم المكانة التي وصلوا إليها عن الاستزادة من العلم وهو فضل عظيم، قال عمر الفاروق رضي الله عنه كما في «كتاب العلم» من «صحيح البخاري»: «تفقهوا قبل أن تُسودّوا»، قال البخاري: «وبعد أن تُسودّوا، وقد تعلّم أصحاب النبي ﷺ في كبر سنّهم»، فرحم الله إمامنا ربيع السنة وبارك في عمره، فلم يشغله شاغل عن العلم، ولم يمنعه مانع عن المطالعة.

﴿كونوا ربّانيين﴾

من فوائد مجالس البخاري، ما رجّحه شيخنا العلامة ربيع في تفسير قوله تعالى: ﴿كونوا ربّانيين﴾، قال البخاري رحمه الله تحت: «باب العلم قبل القول والعمل»: «وقال ابن عباس: ﴿كونوا ربّانيين﴾: حلّماء فقهاء، علماء، ويُقال: الرّبّاني الذي يربّي الناس بصغار العلم قبل كباره»، قال الشيخ -حفظه الله- مُعلّقاً: «الرّاجح هو تفسير ابن عبّاس رضي الله عنه»، والذي رجّحه الشيخ هو قول جماعة من السلف كمجاهد وقتادة والحسن والسّدي والضّحّاك كما في «تفسير الطبري 5 / 526».

إنّ «الحلم» الذي ذكره ابن عبّاس رضي الله عنه هو ركيزة أساسيّة في دعوة العلماء الرّبّانيين، وكلّ من افتقد هذه الخصلة الشريفة فهو خارج عن طبقة الرّبّانيين مهما بلغت منزلته، لأنّ الحلم من خصال الأنبياء، وقد امتدّح الله الخليل إبراهيم عليه السلام فقال في كتابه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: 75]، لهذا أخذ الأئمة من معين هذا الحلم، وورثوا الأنبياء في علمهم وحلمهم، لأنّ دعوة الحق لا ينشرها إلاّ الحلّماء، وممن تميّز بخلق الحلم والدنا الشيخ ربيع، وكل من عرفه يُكبر فيه هذا الجانب المشرق الذي ضرب فيه أروع الأمثلة، كتعامله مع أتباع المفرقين في هذه الفتنة، وقد اكتحلت عيني بمشاهد مؤثّرة ترجمت كلّ معاني الرحمة والرأفة، فتخيّل أخي القارئ أنّ شاباً صغاراً يناقشون إماماً بلغ التسعين سنة في بيته فيلتفّون حوله من كل جانب والشيخ على سريره وهم قائمون ويرفعون أصواتهم ويصرخون ويتهمّون على أبنائه وضيوفه، والشيخ يناقشهم بنفس

هادئة ويطرّجّاهم ويحثّهم على الصلح ويوصيهم باتباع الحق، ثم يرجعون في اليوم الموالي ويعيدون نفس الكرّة والشيخ صابر محتسب، أليس هو حلم الرّبّانيّين؟! لا شكّ أنّ هذا الحلم ما كان في قوم إلّا نَعَمُوا بالخير والأمن وما رفع عن قوم إلّا ابتلوا بالفتن والمصائب، ولا شكّ أنّ من أعظم أسباب رفع الحلم موت الحكماء، قال سعيد بن المسيّب رَحِمَهُ اللهُ كما في «الحلم لابن أبي الدنيا 65»: «لا يكون هلاكهم -يقصد بني أمية- إلّا منهم، قالوا: كيف؟ قال: يهلك حلماءهم ويبقى سفهاؤهم فيتنافسونها ثم يكثر الناس عليهم فيهلكوهم»، وقد رأينا خطورة السفه ومفاسده رأي العيان في هذه الفتنة، فما حمل المفرقين على طيشهم إلّا خلوّ قلوبهم من هذا الحلم الذي أكرم الله به العلامة ربيع، وهذا الخلل ليس وليد اليوم بل رأيناه من قبل مترسّما في حياتهم الدعوية! فقد كانت أبوابهم مؤصدة في وجوه السلفيين، وكان الدخول على أحدهم نظير الدخول على السلاطين، وحتى في مجالسهم العامة فيمنع فيها السؤال والاعتراض والنقاش، وتسلّط أشد العقوبات على من وقع في هذا الجرم العظيم! فَمَنْ مِثْلَ الرَّبِّيعِ يا قومنا؟! والله لو قلنا - وهو الحق - أنّ الشيخ تميّز عن باقي العلماء بحلم عجيب - وكلّهم حلماء - لما أبعدنا، فهو فضل من الله سبحانه يؤتيه من يشاء، ولك أن تنظر أيها المنصف في صفحات التراجم ولك أن تسأل من شئت، هل وُجد من يُنافس الربيع في هذا؟! اللهم إلّا ما نُقل عن سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ! لكن جهود الشيخ ربيع وما عالجه في بيته من محن وفتن لا يعرف قدره إلّا من عايش تلك الوقائع، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، أسأل الله أن يشيبه على ذلك أحسن الثواب وأوفاه.

إحياء السنن في القريب والبعيد

لا شك أنّ كلّ من دخل على الشيخ ربيع في الفترة الأخيرة رأى بعينه تشديد الشيخ في قضية «كمّ القميص»، فهو يرى -حفظه الله- أنّ الكمّ إذا تجاوز الرسغ فهو من الإسبال المنهي عنه، وليس هذا موطن التفصيل في هذه المسألة، وإنما أردت التنبيه على تعظيم الشيخ للسنة ونشره لها وحث الناس على التمسك بها، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في «الزاد 617»: «كانت كمّ قميصه ﷺ إلى الرسغ لا يجاوز اليد»، وقد سمعت الشيخ يقول مغضبا: «أصبح السلفيون يتساهلون في الإسبال»، والشيء المؤثر في الموضوع هو تفاني الشيخ في دعوة الناس إلى تطبيق هذه السنة، فمهما كثر الوافدون فالشيخ لا يعجز عن تنبيههم أبدا، وحتى لو نبّهك الشيخ ثم دخلت عليه مرة أخرى وثالثة ورابعة فسيعيد لك نفس التنبيه بلا كلل ولا ملل، ومن شدة حرصه تراه ينكر على الرجل ويحثه على رفع الكمّ في تلك اللحظة! وأذكر أنّ شابا متحمّسا حاول إقناع الشيخ أن شيخه مظلوم، فعلت نبرته واشتدت عبارته والشيخ ينظر إلى كمّه هل تجاوز الرسغ أم لا! فأمسك يده وقال: «ارفع الكمّ»، فقال الشاب: جزاك الله خيرا شيخ، ثم واصل حديثه، فقاطعه الشيخ قائلا: «لا! ارفع الآن»، والناس عند الشيخ سواء القريب والبعيد، فقد رأيت -حفظه الله- ينكر حتى على أبنائه، وكنت في بيته عندما قدم أحد كبار أبنائه من مكة لزيارته، فبمجرد أن سلّم على والده، فإذا بالشيخ ينكر عليه ويأمره برفع الكمّ! وهذا من التطبيق العملي لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾.

السترة في الصلاة

مِمَّا قَيَّدَتْهُ مِنْ فَوَائِدِ الْإِمَامِ رَبِيعِ السَّنَةِ - حَفَظَهُ اللَّهُ - فِي مَجْلِسِ الْبَخَارِيِّ:

قَالَ الْبَخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «كِتَابِ الْعِلْمِ»: «بَابُ مَتَى يَصْحُ سَمَاعُ الصَّغِيرِ»، ثُمَّ ذَكَرَ تَحْتَهُ حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «أَقْبَلْتُ رَاكِبًا عَلَى حِمَارٍ أَتَانِ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ قَدْ نَاهَزْتُ الْإِحْتِلَامَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصَلِّيُ بَمَنْىَ إِلَى غَيْرِ جِدَارٍ، فَمررت بين يدي بعض الصفِّ، وَأرسلت الأتان ترتع، ودخلت الصفِّ، فلم ينكر ذلك عليَّ أحدٌ».

وَقَدْ سُئِلَ الشَّيْخُ - حَفَظَهُ اللَّهُ - فِي نِهَآيَةِ الدَّرْسِ عَنْ اِحْتِجَاجٍ مِنْ لَمْ يُوْجِبِ السَّتْرَةَ بِمَا وَرَدَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصَلِّيُ بَمَنْىَ إِلَى غَيْرِ جِدَارٍ»، فَقَالَ: «لَا يَنْفِي أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ سِتْرَةٌ، وَالسَّتْرَةُ وَاجِبَةٌ»، يَقْصِدُ الشَّيْخُ أَنَّ الْحَدِيثَ وَرَدَ فِيهِ نَفْيُ الْجِدَارِ وَلَمْ يَرُدَّ فِيهِ نَفْيُ السَّتْرَةِ، فَقَدْ يَكُونُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اتَّخَذَ عِزَّةً كَمَا هِيَ عَادَتُهُ ﷺ، يَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «الزَّادُ ص: 93»: «وَكَانَ يَرْكُزُ الْحَرْبَةَ فِي السَّفَرِ وَالْبَرِّيَّةِ، فَيُصَلِّيُ إِلَيْهَا، فَتَكُونُ سِتْرَتَهُ، وَكَانَ يُعَرِّضُ رَاحِلَتَهُ، فَيُصَلِّيُ إِلَيْهَا، وَكَانَ يَأْخُذُ الرِّحْلَ فَيَعْدِلُهُ فَيُصَلِّيُ إِلَى آخِرَتِهِ»، وَإِضَافَةٌ إِلَى الْقَوْلِ الَّذِي أَجَابَ بِهِ الشَّيْخُ - حَفَظَهُ اللَّهُ - رَدًّا عَلَى مَنْ اِحْتَجَّ بِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَلَى اسْتِحْبَابِ السَّتْرَةِ، فَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ - مِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى وَجُوبِ السَّتْرَةِ - أَجُوبَةً أُخْرَى كَالشُّوْكَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ قَالَ كَمَا فِي «نَيْلِ الْأَوْطَارِ 3 / 8»: «قَدْ تَقَرَّرَ فِي الْأَصُولِ أَنَّ فِعْلَهُ ﷺ لَا يُعَارِضُ الْقَوْلَ الْخَاصَّ بِنَا، وَتِلْكَ الْأَوَامِرُ السَّابِقَةُ خَاصَّةٌ بِالْأُمَّةِ، فَلَا يَصِحُّ هَذَا الْفِعْلُ لِيَكُونَ قَرِينَةً لَصَرَفِهَا».

تركيز الشيخ!

عادة ما نجد كبار السن أصحاب التسعين سنة يعانون من قلة التركيز وضعف النظر لاسيما عند القراءة! وهي من أكبر المعوقات التي تحول بينهم وبين كثير من المهام التي يحتاجون إليها في حياتهم اليومية أبرزها القراءة والكتابة، أما العلامة ربيع -حفظه الله- فقد أمدّه الله بصحة وعافية وأكرمه بقوة تركيز غريبة حيرت القريب والبعيد، وأكثر ما شدّ انتباهي ما رأيته في مجالس البخاري، وأذكر جيدا في أول مجلس كيف كان الشيخ يقرأ بطلاقة وسلاسة من حاشية «البخاري» مع أن الخط صغير جدًا، والشيخ لا يلبس النظارات كما هو معروف! أما أخطاء القارئ فلا تفوت على الشيخ أبداً، فأذكر أن القارئ شرع في القراءة من «باب الرحلة في المسألة»، ولمّا بلغ إلى «باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره» قرأ قول النبي ﷺ: «إِنَّ فِيكُمْ الْمَرِيضَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ»، فصَحّح له الشيخ مباشرة بعدما انتبه -ولم ينتبه أحد منّا في المجلس- وقال: «فيهم وليس فيكم»، ومثال آخر: عندما قرأ الطالب تحت «باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر»، قول إبراهيم التيمي رحمه الله: «ما عرضتُ قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذّبا»، فقرأها: «مُكذّبا» بفتح الذال، لأنّ المُثبت في نسخة «التأصيل» التي كان يقرأ منها القارئ بالفتح والكسر، فصَحّح له الشيخ وأكّد بأنّ ضبطها بالكسر! وغير هذا من الأمثلة التي تُسعد المحبّين، فالشيخ -حفظه الله- لا يزال متمتعا بكامل قواه الذهنية، نسأل الله أن يسدّل عليه ثوب العافية.

لكنهم لم يسمعوا نصائحى!

كنتُ في مجلس الشيخ فتكلّم أحد أتباع المُفرّقين مع الشيخ ربيع - حفظه الله - وأُتنبَ في مدحهم، وبيان دِفاعهم عن الشيخ ربيع وانتصاراتهم لدعوته في الجزائر، واجتهد من أجل إقناع الشيخ بأن من يُدافع عنهم، أولى به من غيرهم، فتركه الشيخ يتكلّم ثمّ قال له: «لكن للأسف الآن لم يسمعوا لكلامي!»، فحار السائل جواباً! وأنى له أن يتفوّه بكلمةٍ وقد أفحمه الشيخ بواحد من أجوبته المُسكِتة، لأنّه لا يستقيم في العقول أن يُدافع الرجل عن العالم وينتصر له زمناً طويلاً، وعندما يوجّه له النصائح يردّها ولا يقبلها!

إنّ موقف الشيخ النبيل في هذه الحادثة هو دليل على صفاء سريرته -نحسبه كذلك والله حسيبه- لأنّ أكثر الخلائق يفرحون بدفاع النَّاس عنهم، ويقرّبون من ينتصر لهم ولو كان مُبطّلاً، لكنّ الشيخ لم ينتصر لنفسه ولم يخدمها على حساب الدعوة، والمُلاحظ أنّه انتصر لمشايخ الإصلاح، ودافع عنهم مع أنّهم متّهمون -كذباً- بخذلان الشيخ، والسّكوت عن الطاعنين فيه، فلماذا انتصر لهم ولم ينتصر لمن أقاموا الدنيا في هذه الفتنة دفاعاً عنه؟! إنّه التجردّ وتقديم مصالح الدعوة على حظوظ النفس، ولاريب أنّ المخلص لا يرى له فضلاً على غيره، فلا يحاسب الناس على تقصيرهم في حقه، ولا يعاتبهم على ما يصدر منهم من أذية تناله منهم، يقول أبو حازم رحمّه الله كما في: «المداراة 145»: «من رأى أنّه خيرٌ من غيره فهو مستكبر، وذلك أنّ إبليس قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، فكان ذلك استكباراً».

لكن لِحيتِكَ صغيرة!

دخل جماعة من فرنسا على الشيخ فرحب بهم بعدما سلّموا عليه، فلاحظ - حفظه الله - على أحدهم وهو رجل عامي متقدّم في السنّ أنّه يأخذ من لِحيته، والشيخ - حفظه الله - دقيق الملاحظة، فقال له مُمازحاً إياه: «أنت أكبرهم لكن لِحيتُك أصغر!»، فضحك الجميع، وكانت نصيحة موفّقة من شيخنا لاحت عليها أنوار الحكمة والشفقة، وأظهر فيها الشيخ كما هي عادته معدّنه الطيب، فهو مُمثّل - حفظه الله - في حياته اليومية - كما رأيناه - قول النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيّره»، وهو صنيع من يخاف الله ويدرك قيمة المسؤولية المنوطة به، ويحاول جاهداً أن يدعو الناس إلى الحق من غير تنفير كما يفعل الكثير ممن اعتلى منبر الدعوة، وكم شاهدنا في العامة من نفر من المستقيمين وإذا سأله عن السبب قصّ عليك قصصاً غريبة من صنيع من أراد له النصح لكن أخطأ الطريق فجعله يبتعد عن هذه الدعوة المباركة بسبب فعل طائش، فالشيخ كما في هذه القصة مرّر نصيحته مازحاً، وقد كان مزاح رسول الله ﷺ صدقاً، ولا شك أن من أعظم الصدق وأنفعه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم تذكّر أخي الكريم أنّ تغيير المنكر في زمن الفتن ليس بالأمر السهل، فالقلوب تكون عادة مشغولة بما تعالينه من أضرار الفتن، وتضعف النفوس عن إقامة شرائع الله، لكن الشيخ - حفظه الله - بقي ثابتاً على طريقته المعهودة، وما ذكرته تحت هذا العنوان هي عيّنة فقط وإلا كل من دخل على الشيخ فقد شاهد بنفسه نماذج أخرى.

نَهْمَةُ الشَّيْخِ فِي الْقِرَاءَةِ!

أَوَّلُ مَا دَخَلْتُ عَلَى الشَّيْخِ رَأَيْتُ عَجَبًا، فَقَدْ بَقِيَ الشَّيْخُ مَا يَقَارِبُ أَرْبَعَ سَاعَاتٍ - وَهِيَ مَدَّةٌ مَكُونِي فِي بَيْتِ الشَّيْخِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ - وَهُوَ يَقْرَأُ، وَلَيْسَ الْعَجَبُ مِنْ انْكِبَابِ الشَّيْخِ عَلَى الْقِرَاءَةِ لِأَنَّهَا عَادَتُهُ مِنْذُ أَنْ عَرَفْتَهُ، وَلَكِنْ الْعَجَبُ مِنْ إِدَامَتِهِ النَّظَرَ فِي كُتُبِ الْعِلْمِ فِي هَذَا السَّنِّ الْمُتَقَدِّمِ، وَفِي سَفَرَتِي هَذِهِ مَا مِنْ لَيْلَةٍ أَخْرَجَ فِيهَا مِنْ بَيْتِ الشَّيْخِ إِلَّا وَأَتْرَكَهُ وَأَوْدَعَهُ وَهُوَ يَقْرَأُ، وَكُنْتُ مَرَّةً فِي بَيْتِ الشَّيْخِ فَحَدَّثَنَا أَحَدُ أَبْنَائِهِ - حَفِظَهُ اللَّهُ - بِعَجَبِيَّةٍ مِنْ عَجَائِبِ الشَّيْخِ فِي قِرَاءَةِ الْكُتُبِ، وَغَرِيبَةٍ مِنْ غَرَائِبِهِ فِي الْمَطَالَعَةِ، قَالَ - وَفَقَهُ اللَّهُ -: «كُنْتُ أَعْرَضُ عَلَى الشَّيْخِ الْخُرُوجَ لِلتَّنَزُّهِ، وَمَرَّةً أَخَذْتُهُ بِسَيَّارَتِي إِلَى الْبَحْرِ حَتَّى يَرْوِّحَ عَنْ نَفْسِهِ، فَكَانَ فِي مَدَّةِ السَّيْرِ يَقْرَأُ فِي كِتَابٍ وَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ لِحِظَةٍ، وَلَمَّا أَوْقَفْتُ السَّيَّارَةَ فِي وَاجِهَةِ الْبَحْرِ لَمْ يَنْتَبِهْ الشَّيْخُ حَتَّى قُلْتُ لَهُ: أَبِي انْظُرْ إِلَى الْبَحْرِ، فَرَفَعَ الشَّيْخُ رَأْسَهُ فَنَظَرَ نَظْرَةً إِلَى الْبَحْرِ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، ثُمَّ أَكْمَلَ الْقِرَاءَةَ!»، يَذْكُرُنَا حَالُ الشَّيْخِ بِمَنْ أَخْبَرَ عَنْهُمْ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «رَوْضَةِ الْمُحِبِّينَ 51»، حَيْثُ قَالَ: «وَأَمَّا عُشَّاقُ الْعِلْمِ فَأَعْظَمُ شَغْفًا بِهِ وَعِشْقًا لَهُ مِنْ كُلِّ عَاشِقٍ بِمَعْشُوقِهِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَشْغَلُهُ عَنْهُ أَجْمَلُ صُورَةٍ مِنَ الْبَشَرِ»، وَهَذَا حَالُ شَيْخِنَا رَبِيعٍ وَكَأَنَّ ابْنَ الْقَيْمِ يَتَحَدَّثُ عَنْهُ! فَالْقِرَاءَةُ هِيَ مَصْدَرُ سَعَادَتِهِ - حَفِظَهُ اللَّهُ -، وَكَمَا تَقَدَّمَ فَالْأَصْلُ فِي سَاعَاتِهِ الْيَوْمِيَّةِ أَنَّهُ يَقْضِيهَا فِي الْقِرَاءَةِ وَلَا تَرَاهُ رَافِعًا رَأْسَهُ عَنِ الْكِتَابِ إِلَّا لِحَاجَةٍ مَلَّحَةٍ، كِإِجَابَةِ سَائِلٍ أَوْ حَدِيثٍ مَعَ ضَيْفٍ، أَوْ غَيْرِ هَذَا مِنَ الصَّوَارِفِ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَحْفَظَهُ وَأَنْ يَرْزُقَهُ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ.

عودة الشيخ إلى سابق نشاطه

في ليلة من ليالي شوال ذهبتُ إلى بيت الشيخ ربيع -حفظه الله- وعندما دخلتُ إلى قاعة الضيوف التي من العادة أن يجلس فيها الزائرون قبل الدخول على الشيخ في غرفته، وإذا بمفاجأة كبيرة تنتظري لم أكن أتوقعها أبدا! لقد وجدت الشيخ جالسا في قاعة الضيوف على الكرسي كما كان يفعل قديما في مكة! والناس ملتفون حوله، كم كانت فرحتي كبيرة بهذا المشهد الذي يسعد به كل مُحِب لهذا الإمام الكبير، فجلست على الأرض، وبقيت أنظر إلى الشيخ متعجبا مستغربا لكن من أمر آخر! فقد كان الشيخ -حفظه الله- مُمسكا بأوراق في يده وينظر فيها باهتمام كبير ويقلب صفحاتها، وكأنه وحده في الغرفة! حتى طلب منه ابنه البار الأستاذ عمر أن يقدم كلمة لهؤلاء الضيوف، وهي حسنة عظيمة من حسنات عمر لأن الشيخ أفاض علينا في ذلك المجلس المشهود من عجب نصائحه، وسكب على أسماعنا من جميل حكمته، فكانت كلمة رائقة رائعة وكأن ملكا نطق على لسانه، لقد علت في تلك الليلة نبرة الشيخ المعهودة وهو ينكر صنيع المفرقين وارتفع صوته الشجي المألوف، وأذكر جيّدا أنه قال بصوت مرتفع: «الجرح والتعديل له رجاله وليس للأوغاد والسفهاء»، وقد أبدى تعجبه -حفظه الله- من المُستعجلين وقال: «كيف يركضون خلف شيوخهم وليس عندهم ولا دليل! وهذه طريقة أهل البدع، فالقضية تحتاج إلى تريث وثبّت»، ثم تكلم عن دعوة محمد بن هادي أتباعه في الجزائر إلى عدم الاجتماع ووصف الشيخ ربيع هذه

الدعوة بأنها «دعوة شيطانية»، ومما قاله -حفظه الله- وأشار إليه: انغماس طائفة من الجاهل والحاقدين في هذه الفتنة واستغلالهم إيّاها في نشر باطلهم، ثم نبّه إلى أثر مدمر من آثار هذه الفتنة ألا هو انحراف الناس وبعدهم عن الدين بسبب هذه الفتنة، وصدق -حفظه الله- فقد رأينا من حلق لحيته ومن سافر إلى بلاد الكفر ورأينا من ارتمى في أحضان الحزبيين والله المستعان، وقد رأيتُ في هذا المجلس أحد المفرّقين ممّن يُشار إليه بالبنان -لعلّي أذكره إن اقتضى الأمر- رأيتُه بجانب الشيخ مُطأطأ الرأس، وهو يستمع لصواعق ربيع السنة تنزل على رأس ابن هادي وجماعته ولم يتكلم ببنت شفة! وبعد ذلك رأيتُه يطيل لسانه في وسائل التواصل، فسبحان من جعل لزيير الأسد رهبة في قلوب الجبناء! وبعد انقضاء المجلس قام الشيخ من مكانه، وحاول أحد الطلبة أن يساعد الشيخ على المشي فمنعه ابن الشيخ عمر لأنّ الشيخ قادر على المشي وهذا الذي حصل حيث خرج الشيخ بمفرده ماشيا كما عهدناه -حفظه الله- وتعجبت في تلك الليلة وتأسّفت كذلك عندما عرفت بأنّ جماعة من المفرقين المشهورين من غرب الجزائر عندما زاروا الشيخ في بيته، جلسوا في غرفة الضيوف ينتظرون الدخول على الشيخ في غرفته فاجأهم الشيخ عندما دخل عليهم ماشيا! فشاهدوا بأمّ أعينهم أنّ الشيخ كان يتمتّع بصحة جيدة ومع ذلك لم يذكروا هذه الحقيقة ولم يشهدوا بالحق بغضّ النظر عمّا جرى بينهم وبين الشيخ في المجلس! هذا مجمل ما وقع في هذا المجلس، وهناك تفاصيل أخرى يجدها القارئ متفرقة في هذا المقال.

هل الخضر نبيٌّ أم وليٌّ؟

في هذه القصّة التي سأذكرها عن الشيخ عبدة للمعتبرين، إضافة إلى ما حوته من الفائدة العلمية، فقد أظهرت تعظيم هذا الإمام للكتاب والسنة، واهتمامه الشديد بمسائل العلم! ففي أحد مجالس البخاري، افتتح الطالب القراءة من: «باب الخروج في طلب العلم»، وبعد انتهائه من قراءة حديث أبي بن كعب رضي الله عنه الذي وردت فيه قصة موسى عليه السلام مع الخضر طلب الشيخ من الطالب فتح المصحف وقراءة الآيات التي ذكرت القصّة من سورة الكهف، ففتح الطالب المصحف وشرع في القراءة، وكان الشيخ يُنصت بخشوع كبير واهتمام بالغ، وبعد انتهاء الطالب من القراءة، قال الشيخ -حفظه الله-: «كلّ ما فعله الخضر إمّا إلهام وإمّا وحي، وهو نبيٌّ والله أعلم»، والذي رجّحه الشيخ من نبوة الخضر هو قول الكثير من المحققين، يقول الحافظ ابن كثير رحمته الله في «البداية والنهاية 1 / 248»: «الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلام، وهذا دليل مستقّل على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته، لأنّ الوليّ لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يُلقى في خلده، لأنّ خاطره ليس بواجب العصمة إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق، ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم، علماً منه أنّه إذا بلغ يكفر ويحمل أبويه عن الكفر لشدة محبتهم له فيتابعانه عليه ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته، صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته، دل ذلك على نبوته وأنه مؤيد من الله بعصمته».

حكمة الشيخ ونظرته البعيدة!

ممّا اشترط في الإمام المجتهد الذي بمقدوره الموازنة بين المصالح والمفاسد عند حدوث الفتن والمحن، أن يكون فاهما لمقاصد شريعة الله! لأنّ باب المصالح والمفاسد بابٌ وَعَرَّ هلك دونه أقوام، وقد رأينا كيف أخلّ الخائضون بهذا الجانب المصيري، بخلاف أئمتنا وعلى رأسهم العلامة ربيع السنة، وقد وقعت لي واقعة في بيت الشيخ في هذه السفرية رسّخت في نفسي مكانة هذا الشيخ وبُعد نظره الأثرية، فقد كنت جالسا في قاعة الضيوف لأستريح قليلا من معارك الثّوار، وفجأة ناداني المنادي: «الشيخ يحتاجك!»، فقمْتُ من مكاني مسرعا ودخلت على الشيخ، فوجدت مجموعة من أتباع المفرقين ملتفة على الشيخ، وقد قال أحدهم للشيخ: مرابط يقول عن الشيخ فركوس جاسوس! فأنكر عليه أحد الحضور قائلا: كن أamina يا أخي فقد أشيع عن مرابط أنّه قال عن الشيخ فركوس أنّه موسوس! فقال الشاب المفترى: لا يهمّ جاسوس أو موسوس! الله أكبر نعم لا يهمّ عندهم وكأنّ ملائكة الرحمن الكتبة لم توكل بإحصاء كلماتهم! المهمّ! عندما سمع الشيخ هذا الكلام أراد أن يسمع مني وهذا من عظيم إنصافه، فقلتُ له: والله الذي لا إله إلا هو ما قلت هذا الكلام ثمّ ذكرت له قصّة هذه الفرية، ثمّ توجه الشيخ للشباب قائلا: «عند الفتن يكثر الكذب»، ثم خاطب الشاب قائلا: وأنت يا ولدي ما عندك وسوسة؟ كلّ إنسان عنده وسوسة»، أراد بكلامه -حفظه الله- أن يفهمهم بأنّ شقّ الصفّ السلفيّ بمثل هذه التفاهات منكر عظيم، فهذه

النقولات هي في النهاية حظوظ نفس لا أقل ولا أكثر! ثم ما أعظم حكمة الشيخ وما أجمل تفكيره، حيث ذكّر الشباب بحقيقة مهمّة وهي أنّ الشيطان يوسوس لجميع البشر وقد ذكر الله في كتابه أنّه وسوس لآدم عليه السلام وحواء فقال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾، فبأي حق وبأي عقل يفرّق بين السلفيين وتقطع العلاقات بين شيوخهم ويسلط عليهم العدوّ الحاقد، بسبب كلام قيل في الشيخ فركوس، لم يثبت لا في كتاب ولا في خطاب؟! بل ثبت عكسه حيث أنكر المتّهم بالأيّمان المغلّظة ودعا إلى المباهلة ومع ذلك لم يستجب الكذب ولم يتبرؤوا من افتراءهم! ثم هل يليق بالداعي إلى الله أن يقبل كلاما ينقل إليه عن فلان بأنّه تكلم فيك؟! أليس هذا من النميّة التي تعرف شرّها عجائز المسلمين؟! لماذا لم ينظر إلى المفسدة العظمى المتحققة والمتمثلة في تفريق أهل السنة؟ وما الذي جناه الناقل المفسد من إثارة هذه المقولة «موسوس»؟! غير الفتن وإيغار صدور أهل السنة بعضهم على بعض! أخي القارئ: هل رأيت كيف عالج الإمام ربيع السنة هذه القضية التي أخذت حيّزا كبيرا في الجزائر وامتحنت الناس من أجلها؟! لا عجب -والله- فهو والد الجميع حقاً وصدقا، وشأن الوالد أن يهوّن من معاني العبارات التي تستعمل في الخصومات الواقعة بين الأبناء! وكأنّه يقول: يا أبنائي حتّى لو قالها مرابط فلا ينبغي أن تتخاصموا من أجل هذه الكلمة التي هي محتملة -إن صحت طبعاً- فالقادم أعظم ومسؤولية السلفي تجاه قومه كبيرة فاتركوا هذه السفاسف واهتمّوا بالمعالي، نعم! هذا هو قلب الربيع بن هادي! أسأل الله أن يحفظه وأن يغفر ذنبه، فكم أشغلناه وكم أتعبناه فلله درّه وعلى الله أجره.

ذاكرة قوية!

مما سمعته من الشيخ في تلك الليالي المباركات في بيته العامر بالخير والطاعة، أنه سئل -حفظه الله- عن حكم الاستفادة من كتب الشيخ فيصل آل مبارك رحمه الله فأجاب الشيخ: «نعم يُستفاد منها، فهو عالم فاضل، وكان قاضيا»، فكرت مليا وشغل خاطري، وقلت: لقد امتنَّ الله عليَّ وعرفني منذ سنين بكتب الشيخ، وقد رأيتُ وتحققتُ أنَّ أكثر طلبة العلم لا دراية لهم بعلوم هذا الشيخ، ولا اهتمام لديهم بكتبه وجهوده، ومع ذلك لم أذكر أنه كان قاضيا! فرجعتُ إلى ترجمته فوجدته كما ذكر الشيخ -حفظه الله-، فسبحان الله من حفظ للشيخ ذاكرته وهو في التسعين من عمره! فقد تذكَّر هذا العالم وأثنى عليه بما يستحق ولم يخطئه، وفوق هذا استحضر كذلك وظيفته وأنه كان من قضاة المملكة، وبعد هذا يقال عن الشيخ أنه كبر ومرض ونسي! ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾، ولد الشيخ فيصل سنة: «1313 هـ» بحريملاء، وتوفي في: «1376 هـ»، أخذ عن أئمة منهم سعد بن عتيق والعنقري، وقد ألَّف كتباً كثيرة منها: «القصْد السديد شرح كتاب التوحيد»، «التعليقات السنية على العقيدة الواسطية»، «نقع الأوام بشرح أحاديث عمدة الأحكام»، «مختصر الكلام شرح بلوغ المرام»، «محاسن الدين بشرح الأربعين النووية»، ومن أراد الوقوف على جهود هذا العالم الجليل فليراجع: «الشيخ فيصل بن عبد العزيز المبارك وجهوده في تقرير العقيدة والدعوة إلى الله» لِثَنَوِي العمري، أسأل الله أن يرحمه وأن يحفظ شيخنا الربيع.

هل تبتدعون هؤلاء؟!

ممّا عاينتهُ بنفسي من آلام هذه الفتنة، تلك الزيارات - حتى لا أقول الهجمات - التي قام بها أتباع المفرّقين إلى بيت الشيخ، لكن فيها من المواقف الطريفة ما جعلني أسعد بتلك الساعات التي قضيتها وأنا أستمع لكلامهم مع الشيخ وأستمع بأجوبة الشيخ الصارمة المُسكّنة، أذكرُ منها: أنّ الشيخ كثيرا ما كان يحرّجهم بقوله ويسكتهم بسؤاله: «هل تبتدعون مشايخ الإصلاح؟!» فكانوا يجيبون بنفس الجواب: «لا أبدا معاذ الله!»، فيقول الشيخ: «فلماذا ترفضون الصلح والاجتماع؟!»، وسؤال الشيخ وجوابه هو في الحقيقة إلهام عجيب لا يُوفّق إليه إلّا موفق مسدّد! فقد سدّ الشيخ عليهم كل الطرق، وقصد بكلامه - حفظه الله -: أنّ مشايخ الإصلاح ليسوا مبتدعة عندكم فما المانع من الاجتماع معهم والسعي في الصلح بينهم وبين شيو خكم؟! فالاجتماع لا يكون مع المبتدعة ومع أهل الأهواء بخلاف الاجتماع مع أهل السنة فهو مطلب مشروع وضرورة رغب فيها الإسلام، فلا عذر لمن يرفضه ويسعى في نقيضه، وإنّا نتأسّف أشدّ الأسف كيف سوّلت لهؤلاء المساكين أنفسهم وأهمّلوا - تقصدا - هذه الأجوبة العظيمة التي خرجت من مشكاة النبوة؟ وكيف طاوعتهم قلوبهم وأظهروا الشيخ بعد خروجهم من بيته وكأنّه بقي ساكتا في تلكم المجالس، وأنّهم أقاموا عليه الحجّة؟ مع أنّ الشيخ ناقشهم وأفحمهم بالأدلة القاطعة، ولم يسكت عن باطلهم في تلكم المجالس على طولها وما اعترأها من صراخ وسوء أدب، والله المستعان.

لفتة مهمة تُعين الداعية إلى الله!

ممّا استقرّ في نفسي من تلك الفوائد الجليلة، والمسائل النادرة التي جادت بها قريحة الشيخ -حفظه الله- أنّه كان يركّز كثيرا عند استفساره وسؤاله الزّوار والضيوف عن أحوال الدعوة في بلادهم، على وجود المعارضة! فعندما يُخبره الرجل عن ضعف النشاط الدعوي في بلاده وقلة الأنصار هناك، كان الشيخ يسأله مباشرة: «هل يوجد من يعارض الدعوة ويقف حاجزا بينها وبين الناس؟!»، فإذا أجابه السائل -وهو الغالب- أنّه لا يوجد، يستبشر الشيخ ويقول: توكّلوا على الله ولا تلتفتوا إلى الكثرة مادام لا يوجد المعارض!»، ومن نظر في أحوال الدعوة منذ القديم، وتأمّل في سيرة الدعاة منذ أن خلق الله السماوات والأرضين، عرف المغزى الذي أراده الشيخ من كلامه، فأكثر من عطّل الدعوة على مرّ العصور هم خصوم الأنبياء والرسل، الذين ساموا أهل الحق أشدّ العذاب، وهذا رسول الله ﷺ وقد ترك مكّة من أجل تحقيق هذا المطلب العزيز، وهاجر إلى المدينة لخلوّها من معارض الحق، وهذا الذي شجّع المسلمين وقوّى عزائمهم لنشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة، فالدّاعي إلى الهدى ليس كسائر النّاس من البطالين الكُسالى، فليست الكثرة من أهدافه ومطالبه، فبمفرده ينطلق في مسيرته الدعوية، ويبنى أساسها مع أقلّ الناس وأضعفهم، وأهمّ ما يُعنيه في تحقيق مراده النبيل ألاّ يجد أمامه من يمنعه من تبليغ رسالات الله، وألاّ يصادف من يلحق به أنواع الأذى، وهذا الذي يُضعف همّته ويُرجعه القهقري، وهو مشاهد معروف.

كيف ينتصر للسلفية من يحبّ الخلاف؟!

كنتُ مع شيخنا ربيع السنة -حفظه الله- فدخل عليه بعض الشباب المُتَعَصِّبة المُنغمسين في فتنة التفريق، فتكلّموا مع الشيخ وشرعوا -بحماس كبير- في عدّ مناقب شيوخهم، وتوصيف دعوتهم وانتصارهم للدعوة السلفية في الجزائر، والشيخ ينصت كما هي عادته، فلما أكملوا حديثهم قال لهم الشيخ مجيباً عن سردهم لجهود شيوخهم: «كيف ينتصر للسلفية من يحبّ الخلاف؟!».

الله أكبر ما أنقى لسان هذا الإمام وما أصدق قلبه! صدق وبرّ الله درّه، كيف يكون منتصراً لهذه الدعوة من يخالف أصولها التي تميّزت بها ومن أوكدها الدعوة إلى الاجتماع ونبد الفرقة، ولم يخالف في ذلك إلاّ خصوم الإسلام وأعداء السنّة، يقول الله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «الاستقامة 1 / 42»: «والبدعة مقرونة بالفرقة، كما أنّ السنّة مقرونة بالجماعة: فيقال: أهل السنّة والجماعة، كما يقال: أهل البدعة والفرقة».

لقد أعطى العلامة ربيع -حفظه الله- هؤلاء المساكين درساً غالياً، وموعظة ثمينة لو كانوا يفقهون! لكنّهم للأسف الشديد قد سدّوا آذانهم، وعطّلوا عقولهم، وإلّا قولوا برّبكم يا عقلاء: ما فائدة ذكر فضائل شيوخهم وجهودهم وهم أنفسهم رفعوا في وجوه خصومهم شعار: «العبرة بحاضر الرجل وليس بماضيه»، وما فائدة أن ينتصر الرجل للإسلام طول حياته ثم يختم مشواره بالدعوة إلى الفرقة؟!

قيمة الوقت عند الشيخ

إنَّ أخبار الشيخ المُتعلِّقة بحفظه لوقته، وقضائه له فيما يرجع عليه وعلى الأمة بالنفع، كثيرة مشتهرة، وقد ضرب -حفظه الله- أروع الأمثلة وأعظم النماذج في هذا الباب، ومن أشدها وقعا في النفوس ما ظهر منها في هذه الفتنة لأنَّ الناس غالبا تضيع أوقاتهم زمن الفتن المُشغلة المُلهية، وسأذكر واحدة منها في هذا المقام: دخل زوار على الشيخ -حفظه الله- من بلاد طاجيكستان، فشرع طالب علم منهم يحسن العربية في السؤال وطلب النصيحة والتوجيه من الشيخ، والشيخ كعادته ممسك كتابا بيده ويقرأ، فأجابه الشيخ وقدم نصائحه الجليلة لأبنائه، وكان يتكلم -حفظه الله- ويسكت حتى تتسنى لذلك الطالب ترجمة الكلام لأصدقائه، فرأيتُ الشيخ يستغل وقت الترجمة في إكمال قراءته للكتاب، فإذا توقف الطالب أكمل الشيخ نصائحه وهكذا استمر المجلس مع الإخوة حتى نهايته، ولا شك أنَّ الذي رأيته من الشيخ في ذلك المجلس هي عادته في سائر أيامه فهو من أحرص الناس على الوقت ومن أشدهم استغلالا له في طاعة الله، وفي نصرة هذا الدين العظيم، لذلك بارك الله له في وقته وعلمه وصحته، وأذكر جيِّدا أننا طلبنا وصية من الشيخ العلامة الفقيه عبد الله بن عقيل رَحِمَهُ اللهُ في آخر لقاء جمعني به فقال رَحِمَهُ اللهُ: «تقوى الله والحفاظ على الوقت»، ثم ردّ قول الشاعر:

الوقت أنفسُ ما عنت بحفظه ... وأراه أسهل ما عليك يضيع

أسأل الله أن يبارك في أوقاتنا وفي أعمارنا، وأن يرزقنا البركة في أعمالنا وأقوالنا.

فقاعات الصابون!

لاشكّ أن السلفي في الجزائر -خاصّة- إذا سمع كلمة «فقاعات الصابون»، أوّل ما يخطر على باله هو: الإمام المحدث محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللهُ! لأنّه اشتهر بها يوم أنّ ماجت أمواج الحزبية في الجزائر، ورفعت رؤوس الخروج وانضمّ أكثر الناس إلى الجبهة الإسلامية للإنقاذ، يومها وصل خبر انتصارهم في الانتخابات إلى مسامع الألباني فقال مباشرة: فقاعات صابون! وهي عبارة ترجمت ثبات الجأش الذي تميّز به أئمة الإسلام! لكنّي أقول: إذا كان الألباني رَحِمَهُ اللهُ قد أخبر عن الفقاعات فالإمام ربيع قد جاءته الفقاعات وهجمت على بيته! ومع ذلك بقي ثابتا ثبات الجبال الراسيات، ولم تهزّه جموع المفرقين -شيوخا وأتباعا- وقد أثرت في نفسي كثيرا تلك المجالس، وقد رأيت الشيخ كيف كان يناقش الجميع! فهذا يُقسم بالله والآخر يبيكي والآخر بيده الأوراق والصوتيات، ومع ذلك بقي الشيخ ملتزما بموقفه وقد سمعته يقول لهم: «موقفي هذا موقف سلفي لن أحيده عنه حتى ألقى الله»، كنت أقول في نفسي: لماذا لم يُرح الشيخ نفسه وهو يرى كل هذه الجموع تصرخ صرخة واحدة، ويقول: لست أعلم من هؤلاء بشؤون بلادهم! وبعيد جدًا أن يجتمعوا على باطل! نعم إنّه قلب ثبته الله بالصدق، وأناره بنور الوحيين، وما أشبه موقف الشيخ بموقف الإمام ابن باز كما في «الدمعة البازية»، عندما التفت حوله الحزبيون بشبههم وهو ثابت في أجوبته ولم يظفروا بما يخدم منهجهم! أسأل الله أن يرحم من مات من علمائنا وأن يحفظ الأحياء منهم.

تَفْطَنُ الشَّيْخَ لَخَطَرِ الْبِدْعَةِ وَأَهْلِهَا

مِمَّا عُرِفَ بِهِ الشَّيْخُ مِنَ الْمَزَايَا الْحَمِيدَةِ، وَالْخِصَالِ النَّبِيلَةِ، تَعْظِيمُهُ لَخَطَرِ الْبِدْعِ، وَمَعْرِفَتُهُ الدَّقِيقَةَ بِآثَارِهَا السَّيِّئَةِ، وَعَوَاقِبِهَا الْوَخِيمَةِ عَلَى الْفَرْدِ وَالْمَجْتَمَعِ، وَقَدْ ظَهَرَ ذَلِكَ جَلِيًّا فِي هَذِهِ الْفِتْنَةِ الْمُدْمِرَةِ الَّتِي حَلَّتْ بِالسَّلَفِيِّينَ، وَبَيَانَ ذَلِكَ: أَنَّ الشَّيْخَ قَدْ عَرِضَتْ عَلَيْهِ أَخْطَاءُ الْمُفَرِّقِينَ فِي بِلَادِنَا، وَعَلَى رَأْسِهِمْ «جُمُعَةٌ»، وَمِنْهَا: «تَحْقِيقُهُ لَكُتَبِ أَهْلِ الْبِدْعِ»، فَاسْتَشْنَعَ الشَّيْخُ عَمَلَ جُمُعَةٍ، بَلْ هُوَ نَفْسُهُ اعْتَرَفَ فِي جَوَابٍ لَهُ سَابِقٍ أَنَّ الشَّيْخَ رُبِعَا قَدْ أَنْكَرَ عَلَيْهِ قَبْلَ الْفِتْنَةِ تَحْقِيقُهُ لِهَذِهِ الْكُتُبِ! فَالشَّيْخُ لَهُ الْفَضْلُ بَعْدَ اللَّهِ فِي تَنْبِيهِ النَّاسِ إِلَى خَطَرِ صَنِيعِ جُمُعَةٍ! لِأَنَّ السَّلَفِيِّينَ فِي الْجَزَائِرِ - وَمِنْهُمْ أُولَئِكَ الرِّجَالُ الَّذِينَ عَرَضُوا الْقَضِيَّةَ عَلَى الشَّيْخِ - لَمْ يَكُونُوا مُنْتَبِهِينَ لِحُجْمِ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ! وَإِنَّمَا نَقَلُوا فَعْلَةَ جُمُعَةٍ عَلَى أَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ الْأَخْطَاءِ! فَمَا كَانَ مِنَ الشَّيْخِ إِلَّا التَّشْنِيعُ عَلَى جُمُعَةٍ وَأَتْبَاعِهِ، وَالتَّرْكِيزُ عَلَى هَذِهِ الْجَرِيمَةِ، وَكَنتُ أَشَاهِدُهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَدْخُلُ عَلَيْهِ الزُّوَارُ وَهُوَ يَشِيرُ بِأَصَابِعِهِ إِلَى الْعَدَدِ «6» وَيَقُولُ: «شَيْخُكُمْ حَقَّقَ سِتَّةَ كُتُبٍ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الْبِدْعِ»، بَلْ سَمِعْتُهُ -حَفَظَهُ اللَّهُ- يَقُولُ: «تَحْقِيقُهُ لِهَذِهِ الْكُتُبِ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى خُلُلٍ عِنْدَهُ فِي الْعَقِيدَةِ»، وَهَذَا الَّذِي أَحْرَجَ جُمُعَةً كَثِيرًا، حَتَّى اضْطُرَّ إِلَى مِرَاسَلَةِ الشَّيْخِ عَنْ طَرِيقِ الْمُقَرَّبِ إِلَيْهِ: «مُوسَى الْقَلِيعِي»، وَأَبْلَغَهُ أَمَامِي: «أَنَّ الشَّيْخَ جُمُعَةٌ يُسَلِّمُ عَلَيْكَ وَيَقُولُ لَكَ: إِنَّنِي تَائِبٌ وَمُتَرَجِعٌ عَنْ تَحْقِيقِ كُتُبِ أَهْلِ الْبِدْعِ وَلَنْ أَعُودَ»، وَبَعْدَهَا خَرَجَ كَلَامُ مُوسَى مَسْمُوعًا، لَكِنِ الشَّيْخُ لَمْ يَعْأَ بِهَذِهِ التَّوْبَةِ، لِأَنَّهَا تَلَاعَبَ وَاضِحِ الْمَقْصُودِ مِنْهَا

إسكات الشيخ وامتصاص غضبه، ومن العجائب أن بعض أتباع المفرقين في المجلس أنكروا على صاحبهم موسى القليعي وردّوا كلامه، وأخبروا الشيخ بحجج جمعة التي اعتذر بها لنفسه في تحقيقه لكتب أهل البدع، لأنّهم مغفلين مساكين لا علم لهم بأساليب جمعة في مثل هذه المآزق، فلو كان صادقا في توبته لكتب بيانا، أو سجّل صوتية مسموعة يُعلن فيها توبته التي أرسل بها إلى الشيخ! لكنّه مُحْتال أراد خداع الشيخ، وتقصّد كتمان رجوعه الموهوم حتّى لا يعلم الأتباع، لذلك لم يصل خبر هذه التوبة إلى هؤلاء المساكين، وحتّى موسى لم يُخبرهم بذلك، والأغرب من هذا كلّهُ أن جمعة سكّت ولم ينكر كلام موسى القليعي ولم يُثبته! وحتّى هذا الأخير لم يكتب حرفا يرى به نفسه! والحقيقة أنّهم وقعوا في مأزق عظيم، فإمّا أن يكون موسى صادقا في الخبر الذي نقله للشيخ عن جمعة، وفي هذه الحالة يثبت الكذب على جمعة ويظهر استهتاره بدين الله، وإمّا أن يكون كاذبا وفي هذه الحالة تكون بطانة هؤلاء المفرقين شرّ بطانة، والحاصل: أنّ الشيخ ربيعا -حفظه الله- أيقظ النائمين، ونبه الغافلين، وعلم الجاهلين، وبين خطر هذه الفعلة المشينة التي كادت أن تُروّج وتنطلي على كثير من الناس باسم الدين، والذي جعل الشيخ يركّز على هذه الجزئية هو عدد الكتب المحققة! فجمعة لم يحقق كتابا واحدا فحسب، بل حقّق ستّة كتب كاملة، ولولا رحمة الله بنا لكان العدد أكبر، ولكان صنيع جمعة منهجا جديدا في التحقيق يتّجه به بعض السلفيين! لاسيما المتعصّبة من أتباع المفرقين، أسأل الله أن يحفظ شيخنا ربيع السنة، وأن يطيل عمره في خدمة السنة وأهلها.

هكذا واجه الإمام فتنة التفريق!

لقد جعل الله كتابه المجيد حجة على البشرية جمعاء، ووصفه بالنور المبين، والمهيمن على جميع الشرائع، وجعله مباركا، وبرهانا، وعربيا مبينا، وأنزله بالحق وبالحق نزل، وتحديّ الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وجعل فيه الهداية والشفاء، فليس بدعٍ من القول أن يكونَ هذا الحبل المتين أصل العلم وأساس الدعوة، ومنطلق الوعظ والتذكير، وركيزة الدعاة، وكان حافظه والمتدبر في معانيه من أهل الله وخاصته، عظيم القدر، قويّ الحجة، سليم القلب واللسان، وإنّي أحسب شيخنا ربيع السنّة -حفظه الله- من أهل القرآن، وممن ربط حياته بتلاوته والعمل به، فقد اكتحلت عيناى بمشاهد تدلّ على هذه الحقيقة، سأذكرها في مقامات أخرى، ولا بأس أن أكتفي بما رأيته في سفرتي هذه لعلّ الله يجعل في ذكر ذلك العبرة والعظة لنا جميعا.

لقد واجه شيخنا هذه الفتنة الحارقة بكتاب الله وبآياته البيّنات، وكلّ من سمع وصاياه ونصائحه يجد نفسه وهو يستمع لآيات من القرآن وكأنّها لم تطرق سمعه من قبل! لأنّ الشان كل الشان في استحضار كلام الله في موطن تكون في أمس الحاجة فيه إلى الواعظ والمعلّم! وأذكر جيّدا تلكم الليلة التي كنت فيها عند الشيخ، وأوصانا بوصيّة جليّة القدر عظيمة النفع، حيث قال -حفظه الله-: «انشروا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾»، تحرّكت مشاعري وأن أستمع

لوصية الشيخ، وتعجبت كيف يذكرنا الشيخ بنشر آية من كتاب الله؟! مع أنها معلومة اضطرارا من كتاب الله الذي يحفظه الصغير والكبير! فعادة يوصي العلماء بنشر كتاب أو مقال، والتركيز على موضوع من الموضوعات المهمة، أما الوصية بنشر آية بين الناس فهي والله منقبة عزيزة تميز بها الشيخ -حفظه الله-.

ويا لها من آية عظيمة حُق لكل عاقل مريد للخير أن يحفظها، وينظر في معانيها وينشرها مُذكرًا بها الناس، وواعظًا بما جاء فيها من قول رب العالمين، يقول الشاطبي رحمه الله في كتابه: «الاعتصام 3 / 162»: «ومعنى صاروا شيعة: أي جماعات بعضهم قد فارق البعض، ليسوا على تَأَلُّف ولا تعاضد وتناصر، بل على ضد ذلك، فإنَّ الإسلام واحد وأمره واحد، فاقضى أن يكون حكمه على الائتلاف التام لا على الاختلاف، وهذه الفرقة مُشعرة بتفرق القلوب المشعر بالعداوة والبغضاء»، وكل من وقف على شيء من أحداث هذه الفتنة الأخيرة يدرك ضرر الفرقة على الأفراد والمجتمعات، ويربط قلبه على ما أمر الله به في كتابه من الاجتماع وما نهى عنه من الاختلاف، وسيجد الناصح الصادق بغيته في هذه الآية العظيمة التي حسمت المعضلة وحكمت بين الناس.

لقد ذكرني صنيع شيخنا الربيع -حفظه الله- بموقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه يوم أن جاء نعي رسول الله ﷺ وثقل الأمر على الصحب الكرام رضي الله عنهم وعلى رأسهم فاروق الأمة رضي الله عنه، فقد ثبت الصديق قلوبهم وجبر كسرهم بآية من كتاب الله سبحانه! فقد روى البخاري في «صحيحه: 1241» عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أبا

بكر رضي الله عنه خرج وعمر رضي الله عنه يكلم الناس، فقال: «اجلس»، فأبى، فقال: «اجلس»، فأبى، فتشهد أبو بكر رضي الله عنه، فمال إليه الناس وتركوا عمر، فقال: «أما بعد، فمن كان منكم يعبدُ محمداً صلى الله عليه وسلم فإنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم قد مات، ومن كان يعبد الله، فإنَّ الله حي لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ إلى ﴿الشاكرين﴾»، فوالله لكانَّ النَّاسَ لم يكونوا يعلمون أنَّ الله أنزل الآية حتَّى تلاها أبو بكر رضي الله عنه، فتلَّقَّها منه الناس، فما يُسمع بشر إلاَّ يتلوها»، يقول شيخ الإسلام رحمته الله في «الفتاوى: 363 / 27»: «والناس تغيب عنهم معاني القرآن عند الحوادث فإذا ذكروا بها عرفوها»، ولا بأس أن أضرب مثالا آخر يكشف عن رسوخ هذا المنهج الرباني في الاستدلال في قلب الشيخ حتَّى نستفيد أكثر ونُدرك أنَّ من الخطأ أن نضيِّع الأوقات في حشد الأقوال لنقرّر ما نراه حقاً وقد تكفينا آية من كتاب الله في تحقيق المراد! فقد حدّثني أحد المشايخ الفضلاء ممّن التقيتهم في بيت العلامة ربيع - حفظه الله - أنّه كان حاضراً في مجلس مع الشيخ فدخل عليه أحد المفرّقين من الجزائر فقال للشيخ: عندي رسالة من لزهر فقال له الشيخ: «قرأتها»، فألح المفرّق وحاول إقناع الشيخ أن الرسالة لم تبلغه كاملة! فقال الشيخ: «اقرأ لكن قبل أن تبدأ تذكر قول الله تعالى: ﴿وقالوا ربّنا إنّنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيل﴾»، الله أكبر! ما أطيب قلبك ولسانك يا شيخنا، وما أقوى حجّتك! نعم! تذكّر يا مسكين أنَّ الله سيؤقّفك وسيسألك عن دفاعك عن كبرائك بالباطل! وتذكّر أنَّ شيوخك لن ينفعوك يوم القيامة ما دمت مخالفاً للحق، تذكّر أنّك ربما ستقول يوم القيامة: ﴿إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيل﴾.

مسألة مهمة حول حكم الإقامة في بلاد الكفر

مِمَّا حَفِظْتُهُ عَنْ شَيْخِنَا رَبِيعِ السَّنَةِ -حَفِظَهُ اللَّهُ- مِنْذُ الْقَدِيمِ فَتَوَاهِ بِحَرَمَةِ الْإِقَامَةِ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ، وَتَشْدِيدِهِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْخَطِيرَةِ، فَكَانَ سَرِيعَ الْإِنْكَارِ عَلَى زُؤَارِهِ وَضُيُوفِهِ مِمَّنْ يَقِيمُ فِي بِلَادِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَذْكَرَ مَرَّةً أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ حُكْمِ إِرْسَالِ الزَّكَاةِ مِنْ بِلَادِ الْكُفْرِ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ الشَّيْخُ: «عَلَى السَّائِلِ أَنْ يُرْسَلَ نَفْسُهُ قَبْلَ زَكَاتِهِ!»، بِهَذَا عَرَفَ الشَّيْخُ، لَكِنْ مَا لَاحَظْتُهُ عَلَيْهِ -حَفِظَهُ اللَّهُ- فِي هَذِهِ السَّفَرِيَّةِ أَنَّهُ أَصْبَحَ يُقَيِّدُ فَتَوَاهِ وَنَصَائِحَهُ بِقَيْدِ مَهْمٍّ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مِنَ الدَّعَاةِ وَمِمَّنْ يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ لَا بَأْسَ بِأَنْ يَبْقَى هُنَاكَ شَرِيطَةً أَنْ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى السَّنَةِ وَالْإِسْلَامِ»، وَهَذَا الْكَلَامُ هُوَ مِنَ الْفَقْهِ الْعَظِيمِ وَالرَّأْيِ الْمُسْتَنِيرِ بِنُورِ الْوَحْيِ، فَقَدْ أَزْدَادَ عِدَاءَ الْكُفَّارِ لِلْإِسْلَامِ بِسَبَبِ حَقْدِهِمُ الدِّينَ وَأَسْهَمَ الْخَوَارِجُ فِي إِشْعَالِ هَذِهِ الْأَحْقَادِ، وَعَادَ كُلُّ ذَلِكَ بِالضَّرَرِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ هُنَاكَ، فَالشَّيْخُ -حَفِظَهُ اللَّهُ- لَمْ يُهْمَلْ هَذَا الْجَانِبُ، وَلَمْ يَسْتَهِنْ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، فَرَخَّصَ لِمَنْ اسْتَفْتَاهُ مِنَ الدَّعَاةِ الْبَقَاءَ هُنَاكَ مِنْ أَجْلِ تَقْلِيلِ شُرُورِ أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَبِهَذَا امْتَاَزَ أُمَّةُ الْإِسْلَامِ عَنْ غَيْرِهِمْ، يَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «إِعْلَامِ الْمَوْقِعِينَ 4/ 337»: «هَذَا فَصْلٌ عَظِيمٌ النَّفْعُ جَدًّا، وَقَعَ بِسَبَبِ الْجَهْلِ بِهِ غَلَطٌ عَظِيمٌ عَلَى الشَّرِيعَةِ، أَوْجَبَ مِنَ الْحَرْجِ وَالْمَشَقَّةِ وَتَكْلِيفِ مَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ مَا يَعْلَمُ أَنَّ الشَّرِيعَةَ الْبَاهِرَةَ الَّتِي هِيَ فِي أَعْلَى رَتَبِ الْمَصَالِحِ لَا تَأْتِي بِهِ، فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ مَبْنَاهَا وَأَسَاسُهَا عَلَى الْحُكْمِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَهِيَ عَدْلٌ كُلُّهَا، وَرَحْمَةٌ كُلُّهَا، وَمَصَالِحُ كُلُّهَا، وَحِكْمَةٌ كُلُّهَا».

الصبر على ابن هادي!

بعد درس البخاري سأل أحد إخواننا الأفاضل من بلاد تونس الشيخ ربيعا -حفظه الله- عن الشبهة المثارة وهي قولهم: لماذا صبر الشيخ ربيع طويلا على رؤوس أهل البدع مثل عبد الرحمن عبد الخالق وسلمان وسفر، وأبي الحسن، وعدنان، وغيرهم ولم يصبر على محمد بن هادي؟! فكان جواب الشيخ كما هي عادته الحميدة جوابا فاصلا حاسما رفع به اللبس وكشف الشغب الذي شوّش به المفرقون، فقال -حفظه الله-: «فتنة هؤلاء كانت محصورة أمّا فتنة ابن هادي فقد عمّت العالم، لا يجوز السكوت عليه»، أقول: كلّ سلفي عاقل يشهد على صدق الشيخ، لأنّ فتنة ابن هادي فرّقت بين القريب وقريبه، والوالد وولده، والزوج وزوجته، والأخ وأخيه، فتنة ابن هادي دخلت البيوت من النوافذ والأبواب، وشغلت عوام الناس، وأضحكت على السلفيين أعداء الإسلام، ووصل صداها إلى وسائل الإعلام فاستغلّتها شرّ استغلال، فتنة ابن هادي مكّنت لأهل البدع وجعلتهم في منأى عن ردود أهل السنة، فتنة ابن هادي جرّأت الصغار على الكبار، وسلّطت الجهّال على العلماء، وشحنت مرضى النفوس والغوغاء على طلبة العلم والمشايخ، فتنة ابن هادي أصّلت أصولا باطلة وروّجتها باسم السلفية، هذه هي الفروق بين فتنته وفتنة غيره من المبتدعة، ومع ذلك نشهد شهادة حق وصدق أنّ العلامة ربيعا صبر على ابن هادي وتحمل شرّه، أمّا مدّة الصبر والتحمل فهو المُقدّر لها، لأنّه هو العالم الإمام وحامل لواء الجرح والتعديل -حفظه الله-.

إقرار الأخطاء من أعظم الأخطاء!

دائماً مع المواقف العجيبة التي عايشتها في بيت الشيخ -حفظه الله-، وهو موقف أخفاه المفرقون، ولم ينقله أتباعهم، لأنّه يفضحهم ويظهر فضيلة من فضائل الشيخ الجليلة، ففي ليلة من ليالي شوال دخل بعض الشباب المُتحمّس على الشيخ ربيع -حفظه الله- ثم شرعوا في طرح أفكارهم عسى أن يُقنعوا الشيخ برأيهم، وكما هي عادتهم في الدفاع عن شيوخهم حاولوا إحراج الشيخ بسؤال غريب لم أتوقع سماعه، بعدما فهموا عن الشيخ أنّه لا يوافق الشيخ فركوسا، فقال أحدهم: «يا شيخ ربيع ما هي أخطاء الشيخ فركوس؟!!»، فأجابه الشيخ -حفظه الله- مباشرة ومن غير تفكير، وبصراحة كبيرة، فقال: «الشيخ فركوس يُقرّ الأخطاء!!»، فألقم السائل حجراً، ولم يجد ما يقوله بعد سماعه لهذا الجواب المُسكِت! لأنّه ظنّ -لجهله بمكانة العلامة الإمام- أنّه سيُخرجه بطرح هذا السؤال، ويثبت جهل الشيخ بحال الشيخ فركوس في هذه الفتنة، وتخيل أنّه سيجرّ الشيخ إلى تخطئة الشيخ فركوس بأشياء غير ثابتة! ثم يتعلقون بكلامه ويهولون به، ولا يُستبعد أنّ السائل كان يسجّل خفية! لكن الشيخ أظهر علوّ قدره وقوّة ذكائه، وأنّه على اطلاع كبير بما هو حاصل في بلاد الجزائر، والذي قصده الشيخ من كلامه: أنّ الشيخ فركوسا أقرّ أخطاء جمعة ولزهر ودافع عن أكثرها، وانتصر لأصحابها! وهذا في حدّ ذاته خطأ جسيم، لاسيما وصاحبه على أعلى هرم من يُرجع إليهم ويُعتمد قولهم في الجزائر، لاسيما في هذه الفتنة!

ورع الشيخ في الفتوى

ممّا عُرِف به الشيخ -حفظه الله- من خلال النبيلة، ورعه العظيم في الكلام في دين الله، وخوفه من الله في مجال الإفتاء، ولا بأس أن أقصر على مثال واحد عايشته في رحلتي هذه: سئل الشيخ -حفظه الله- عن حكم اللقاح الاصطناعي؟ قال الشيخ للسائل: «هل يأتي به الولد؟!»، قال السائل: نعم يا شيخ، ثم شرح له الحضور طريقة هذا اللقاح، فأطرق الشيخ رأسه، وفكّر، ثم قال: «الله أعلم»، ولم يزد على ذلك، ولا شكّ أنّ جواب الشيخ هو من الدروس الحيّة التي ينبغي للطالب أن يأخذها عن شيخه، فالقول على الله بلا علم هو قاعدة الضلال، وينبوع الفتن، وإنّ من الخطأ الشائع أن نحصر إثم ومفسدة هذه الجريمة في المتكلم والمفتي، لأنّ فسادته متعدّد إلى غيره من الأفراد والجماعات وبهذا يكون فعله الشنيع أشد وأخطر! وهذا الذي ورد في سنة النبي ﷺ كما في الحديث المتفق عليه «البخاري: 100، ومسلم: 2673»، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالمٌ اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم؛ فضلُّوا وأضلُّوا»، فهؤلاء القائلون على الله بلا علم هم وقود الفتنة، وأكثر ما تروج أقوالهم وتأصيلاتهم وتوجيهاتهم عند انتشار الجهل وموت العلماء، وقد عاينا جرأتهم على الله في هذه الفتنة الأخيرة فتنة التفريق، وعانينا من تهوّرهم وتقديمهم بعدما اتخذهم الناس رؤوساً، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

التحقيق العلمي عند العلامة ربيع!

سألتُ الشيخ في إحدى الليالي: قلتم -حفظكم الله- في عدة مواضع من محاضراتكم أن أئمة الدعوة النجدية اختلفوا في مسألة العذر بالجهل، فهل وُجد من نصّ على هذا أم هو اجتهاد منكم بعد استقراء؟ فقال الشيخ: «لا أذكر أن واحداً من العلماء نصّ على وقوع اختلاف بين أئمة الدعوة في هذه المسألة وأنا قلت هذا اجتهاداً»، فأخبرته بما أفادني به الشيخ خالد حمودة -وفقه الله- الذي أصرّ على إفادة الشيخ بأنه تحصّل على مخطوط لأحد كتب العلامة ابن سحمان رحمه الله لم يطبع، نصّ فيه على أن أئمة الدعوة اختلفوا في المسألة، وفرح الشيخ بهذه الفائدة العريضة التي تُثبت قوة الشيخ في التحقيق العلمي، وشدة إيمانه على قراءة كتب الأئمة، وهذا ما أثمر تلك الصلابة التي عرف بها في مواجهة المُحرّفين لعقائد السلف، كالحداذية والخوارج وأضرابهم الذين استغلّوا هذه القضية الشائكة لتحقيق مآربهم الدنيئة، وأهدافهم الخبيثة، ومن أخطرها تكفير عباد الله بالظنون والأوهام، وقد تصدّى العلامة ربيع لهذه الشرزمة المارقة، وبيّن باطلهم وزيف مقالاتهم، وبسبب ذلك ألحقوا به الكثير من المتاعب والأذى حتى وصل بهم الحال إلى تكفيره! يقول الشيخ ربيع كما في «فتاوى في العقيدة والمنهج/ ح: 3»: «الخلافاً لهذا واقع في نجد بين بعض المشايخ وغيرهم، لكن لا خصومة ولا تضليل ولا حرب ولا فتن، وإنما هذه طريقة الفئة الحداذية الماكرة الضالة أنشئت لإثارة الفتن بين أهل السنة، وضرب بعضهم ببعض! وهم تكفيرون متسترون».

هل أيدوه؟!

التَفَّ جماعة من أتباع المُفرِّقين حول الشيخ ربيع -حفظه الله- وشرعوا في نصرة مشايخهم بالباطل، فأخبر أحدهم الشيخ أنَّ مشايخ الإصلاح جلسوا مع الرمضاني! فسأله الشيخ بحنكة عظيمة: «هل أيدوه؟!»، قال: نعم! فقال الشيخ مشيراً بيده: «هات التأييد!»، فقال الشاب: التأييد عند الشيخ فركوس! فتعجَّب الشيخ من جوابه، وقال: «أنتم متعصِّبون لجهة فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم».

إنَّ صلابة الشيخ في هذه المناقشات حيَّرت العقلاء! ومن شدَّة سداذه في الأجوبة كان يُضطر أولئك الشباب إلى الكذب، كصنيع صاحبنا هذا، حيث زعم أنَّ مشايخ الإصلاح أيدوا الرمضاني! وهذا ما لم يصرِّح به حتى شيوخهم! فالشيخ فاجأ الرجل بذلك الاعتراض لأنَّه إمام متخصص في هذه القضايا، وهو يعلم أنَّ الجلوس مع المُنحرف لا يستلزم التأييد لذلك سأله مباشرة هل أيدوه؟! فما كان منه إلا أن يكذب ليتخلَّص من ورطته! ولو أنَّه صدق في دخوله على الشيخ لعلم أنَّ المسؤول هو أحد علماء الأُمَّة! فلا داعي للكذب عليه، لأنَّ المفتي يُوجَّه المُستفتي بما يرجع عليه بالخير والصالح في دنياه وأخراه، ثمَّ ليتأمَّل العقلاء في صنيع هؤلاء المقلِّدة، فحتى مواقفهم التي يرون أنَّها مبنية على الأدلة إذا سألتهم عنها يقولون لك: هي عند الشيخ فلان! كما فعل الشاب المسكين مع الشيخ ربيع لمَّا سأله عن التأييد! والحقيقة أنَّه كذب مرتين، كذب على مشايخ الإصلاح أنَّهم أيدوا الرمضاني والثانية: كذبه على شيخه فركوس عندما زعم أنَّه يمتلك التأييد!

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾

ذكرنا فيما سبق أنّ العلامة ربيع واجه هذه الفتنة بكتاب الله! وممّا أذكره أنّ سائلا من إريتريا سأله -حفظه الله- عن الذين توقّفوا في فتنة ابن هادي ولم يظهروا مواقفهم، فأجابه الشيخ قائلا: «الواجب عليهم نصرة المظلوم، لأنّ هذه الفتنة وقع فيها الظلم، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾»، لقد وُفّق الشيخ في هذا الكلام أيّما توفيق! لأنّ هذه الفتنة وبعد مرور أيامها الأولى اتّضح خيطها الأسود من الأبيض، وظهر المحق من المُبطل، وقد أخبرنا العلامة ربيع وقال: «بعد ظهور الحقّ أنا أشكّ الآن في سلفيّة من يخالف»، إنّ شبهة التوقف أضرت كثيرا بالسلفيين منذ أزمنة بعيدة، لأنّ أكثر الناس لا يفرقون بين الفتنة التي وجب فيها بيان الحق، وبين الفتن التي يكون علاجها بالعزلة، وقد استغلّ أهل الأهواء هذه الشبهة وعاثوا فسادا في صفوف السلفيين، يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ كما في «مجموع فتاويه 359 / 7»: «الأحاديث المتعلقة بالفتن والتحذير منها محمولة عند أهل العلم على الفتن التي لا يُعرف فيها المُحقّ من المُبطل، فهذه الفتن المَشروع للمؤمن الحذر منها، وهي التي قصدها النبي ﷺ بقوله: «القاعد فيها خير من القائم، والماشي خير من الساعي» الحديث، أمّا الفتن التي يُعرف فيها المُحقّ من المُبطل، والظالم من المظلوم فليست داخلة في الأحاديث المذكورة، بل قد دلت الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على وجوب نصرة المُحق والمظلوم على الباغي والظالم».

كونوا مع الحسن رضي الله عنه

لقد ردّد العلامة ربيع -حفظه الله- في هذه الفتنة قولاً عظيماً تهتز له قلوب المصلحين، فقد سمعته كثيراً وهو يُذَكِّر الشباب المتحمّس من أتباعه المُفرّقين بواقعة الحسن رضي الله عنه وبمنقبتة العظيمة يوم أن أصلح الله به بين طائفتين عظيمتين، فقد روى البخاري في «صحيحه: 7109»، عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: بينا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب جاء الحسن فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ابني هذا سيّد، ولعلّ الله أن يُصلح به بين فئتين من المُسلمين»، فكان الشيخ -حفظه الله- يخبرهم بالحديث، ويكرّره ويعيده على المسامع في المجالس كلّها ثم يختم دائماً بتوجيه كلمة جليّة لأولئك الشباب، ويقول: «كونوا مع الحسن»، وهي -والله- من أجلّ العبارات الصادقة التي سمعتها من الشيخ منذ أن عرفته! فمن ذا الذي يرفض أن يكون مع الحسن بن علي رضي الله عنهما؟! الذي بسببه حقنت الدماء، وسُمّي ذلك العام «بعام الجماعة»، بعد أن تنازل الحسن عن الخلافة لأخيه معاوية رضي الله عنهما، مع أنّ الخلافة كما لا يخفى من أعظم الفرائض الدينية التي أنيطت بها مصالح العباد والبلاد، وجعل الله في إقامتها حماية لعقيدة التوحيد وشرعية الرحمن، ومع ذلك تنازل عنها الحسن رضي الله عنه! فكيف لا يتنازل الرجل اليوم عن مصالحه الشخصية وهو لا يعدو أن يكون مجرد داعية؟! وكيف لا يدعو للصالح مع إخوانه مع أنّ الخصومة لم تبلغ إلى حدّ الاقتتال وإراقة الدماء؟! هذا هو المعنى الجليل الذي أراد إيصاله العلامة ربيع المدخلي -حفظه الله- إلى هؤلاء المساكين! لكنّهم كابروا وعاندوا.

تَحَسُّرُ الشَّيْخِ!

في أحد المجالس التي حضرتها في بيت الشيخ -حفظه الله- أكثر عليه المتعصبة من إيراد أخطاء مشايخ الإصلاح، والشيخ يذكرهم بضرورة الصلح بين السلفيين وأهمية اجتماع الكلمة، ويذكر لهم بين الفينة والأخرى آية أو حديثا لكنهم رفضوا الاستماع لكلام الشيخ وأظهروا سوء أدب كبير فكانوا يقاطعون الشيخ ويتكلمون في نفس الوقت بصوت واحد، يا شيخ: مشايخ الإصلاح فعلوا وفعلوا، هم طعنوا وهم قالوا، فقال الشيخ متحسرا بنبرة أليمة، وعلامات الأسى بادية على وجهه: «أتلوا عليكم آيات الله وأنتم: يا شيخ يا شيخ»، وهذا يؤكد ما أخبرت به سابقا عن تعظيم الشيخ لنصوص الوحيين وأنه واجه هذه الفتنة بكتاب الله، فالقوم في سكرتهم يتخبطون، ولو كانوا حقا معظمين لكتاب ربهم، لتحلوا بصفات عباد الرحمن التي منها تعظيم هذا الكتاب العزيز، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرَوْا عَلَيْهَا صَمَا وَعِمَانًا﴾، ولو كانوا حقا وصدقا معظمين لحبل الله المتين لتأسوا بفاروق هذه الأمة، فقد روى البخاري في «صحيحه: 7286» أن عيينة بن حصن دخل على الفاروق عمر رضي الله عنه فقال له: «يا ابن الخطاب والله ما تعطينا الجزل وما تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همَّ بأن يقع به، فقال الحرّ: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقفا عند كتاب الله»، فما الذي نقوله نحن؟!!

فليعطوا دروسا في التراجع

في أحد مجالس شيخنا الهمام ربيع السنة أكثر أتباع المفرّقين من الوقعة في الأبرياء وعلى رأسهم مشايخ الإصلاح، وزعموا أنهم لم يرجعوا عن أخطائهم وأنهم يكابرون الحق، فقال الشيخ بحزم وأجابهم بجواب عظيم فقال: «أخطاء شيوخكم أسوأ من أخطاء مشايخ الإصلاح، فليتوبوا منها أولا، وليعطوا دروسا في التراجع قبل أن يطالبوا غيرهم بذلك»، والحمد لله فقد ألجم المجادلون بهذا الجواب إلجاما كما هي عادتهم، وتبين تعصّبهم وأنهم مقلّدة لشيوخهم في الباطل ولو كانوا منصفين لطالبوا شيوخهم بالتراجع عن أخطائهم التي بلغت الآفاق، وصدق الشيخ في جوابه فعلامة الصادق أن يجتهد في ترجمة أقواله إلى أفعال، وأن يبذل وسعه ليلتزم بما يطالب به غيره من الفرائض والسنن، وقد أنكر الله في كتابه المجيد على من خالف في هذا الباب، فقال جلّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، فكم شاهدنا وسمعنا في هذه الفتنة من تناقضات المفرّقين، فتجده ينكر مجالسة المنحرفين، وإذا به يعاشرهم ويشاركهم، ويحقق كتبهم ويبيعها، ومن أعجب الأمور أن هذه الفتنة كانت بدايتها في جزائرنا العزيزة بحجة الدفاع عن الشيخ ربيع والانتصار له، فإذا بنا نفجّع بمطاعن بعض هؤلاء في الشيخ، وبسكوت وإقرار البعض الآخر! فتبين أن تهويلهم كان القصد منه إسقاط الأبرياء واللعب على مشاعر السلفيين واستمالتهم لتحقيق مآربهم الرخيصة والله المستعان.

كيف نظر الإمام ربيع إلى فتنة ابن هادي؟!

إنَّ من الخصائص العظيمة التي ميّز الله بها الأئمة الربانيين وفصلهم بها على غيرهم، معرفتهم الدقيقة بأغوار الفتن، ونظرتهم الثاقبة إلى أبعادها وآثارها، ومن أجل ذلك فرض سبحانه على الأمة الأخذ بوصاياهم وفتاويهم عند حدوث الفتن المدلّهمة، وقد نطقت التجارب بأنَّ إهمال أقوالهم يطيل عمر الفتن ويزيد من لهيبها، ولقد رأينا اليوم بأمّ أعيننا كيف وقف الإمام ربيع -وهو في سنّ متقدّم- لفتنة ابن هادي ولم يسكت وواجه أركان التفريق في الدنيا بكل حزم! لأنّه علم مرامي القوم، وتفنّن إلى مقاصدهم وأنّهم ذاهبون بالشباب السلفي إلى مفاوز لا رجعة منها! كنت في أحد مجالس الشيخ ربيع في شرح البخاري، فتكلّم بكلام عظيم اختصر فيه فتنة ابن هادي وبيّن نتائجها بكل وضوح، فبعد أن قرأ الطالب من «كتاب العلم»، قول مالك بن الحويرث: قال لنا النبي ﷺ: «ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم»، وقول النبي ﷺ: لو فد عبد القيس بعدما علّمهم أمور دينهم: «احفظوه وأخبروه من وراءكم»، قال الشيخ -حفظه الله-: «النبي ﷺ أمر الصحابة وحثّهم على تبليغ العلم ونشره وابن هادي يمنع الدعاة ويصفهم بالصّعافقة، وهذه الأحاديث جيّدة في الردّ عليه وعلى جماعته، فكتبوها ورُدّوا عليهم بها»، سبحان الله! صدق رحمّ الله حيّا وميتّا، تخيّل معي أخي القارئ: يجتهد طالب العلم من سنّ الطفولة في الدراسة إلى أن يصل إلى الجامعة ثم يناقش ويتحصل على أعلى الشهادات، وفي الأخير يأتي ابن هادي ويصفه بالصعفوق ويمنعه من نشر العلم!

وهذه والله داهية الدواهي! لأنّ هذا الفكر الخطير يمنع الطلبة من دعوة المشركين إلى الإسلام، ويحجزهم عن هداية العصاة إلى طاعة الله، ويحول بينهم وبين فضح البدع وأربابها، نعم هي نظرة ربيع بن هادي سلّمه الله! ومن لطائف الباب: أنّ طفل المفرّقين «الطرابلسي» عندما دخل على الشيخ وسأله الشيخ عن مستواه أو مشروعه - الشك مني - فأجابه الطفل أنّه يريد الالتحاق بالجامعة أو المعهد - الشك مني كذلك - قال له الشيخ: «لا تتعب نفسك ستصبح صغفوقا بعد طلبك للعلم هذا الذي يريده ابن هادي»، وإنّ من المفاسد المترتبة كذلك على هذا الفكر التدميري، أنّ الشاب الحدث لن يتحمّس لطلب العلم بعدما شاهد بعينه أنّ من سبقه بعشرات السنين في ميدان الدعوة والطلب قد أهانتة الألسن بالتحذير، وأصبح حديث العام والخاص، فيقول: ما فائدة طلبي وتحصيلي عندما ستكون نهايتي بهذه الصورة السيئة المؤلمة؟! نعم هذه هي أبواب الشرّ التي فتحتها ابن هادي على الأمة المحمدية المرحومة، وبها تجرّأ أتباعه من «المُصعِفَقَة» فكان حالهم كحال من تكلم عنهم الإمام ابن القيم رحمه الله في «مفتاح دار السعادة 165» فقال: «نُوبُ إبليس في الأرض، وهم الذين يُشَبِّطُونَ النَّاسَ عن طلب العلم والتفكُّه في الدين، فهؤلاء أضُرُّ عليهم من شياطين الجن، فإنهم يحولون بين القلوب وبين هدى الله وطريقه»، وبعد هذا يأتي من يهوّن من أحكام الإمام ربيع ويستخفّ بتوصيفه للأحداث ومن ذلك قوله - حفظه الله - عن هؤلاء المفسدين: «هم أخسّ من الحداية!»، إي وربّي إنّهم أخسّ وقد أثبتت شواهد الوقت صدق من وصفه محدث العصر الألباني بأنّه حامل لواء الجرح والتعديل وبحقّ!

ضبط الشيخ!

من أعظم أبواب الشرّ التي فتحها المفرّقون، محاولتهم لإسقاط الشيخ العلامة ربيع بالتشكيك في أحكامه، ومن مزاعمهم الخبيثة دعوتهم أنّ الشيخ كبر وأصبح ينسى، وهي فرية صلعاء صدّقها الدهماء، وكلّ من دخل على الشيخ وتحلّى بالصدق والإنصاف يعرف أنّ هذا الكلام باطل، وقد وقفت بنفسي على براهين كثيرة أذكر منها: أنّ جماعة من العراق دخلوا على الشيخ -حفظه الله- وسأله أحدهم عن أبي عبد اللطيف عبد الحق الكردي، فحذّر منه الشيخ بشدّة، فاعترض السائل سائلا عن الأدلّة، فأجاب الشيخ فوراً: «أنا لا أذكرها الآن لكن هناك كاتب عراقي ألف كتاباً بيّن فيه أخطاء الرجل فراجع»، وهذا الجواب عند من عقل هو دليل ضبط وليس دليل نسيان! وبرهان على ورع الشيخ، فالشيخ ضبط اسم المسؤول عنه واستحضر حاله فحذّر منه، ولمّا سئل عن الأدلّة استحضر كذلك أنّ هناك من كتب عنه وبيّن باطله بالأدلّة، ولم يتوسّع الشيخ في الكلام بما لا علم له في تلك اللحظة، وهذا التحفظ هو من أركان الأمانة، يقول العلامة المعلّم اليماني رحمه الله في «التنكيل 1 / 66»: «لا يلزم من الاختلال الضبط فإنّ النّاسي إن نسي الحديث أصلاً لم يحدث به البتّة، وكيف يحدث به وهو ناسٍ له؟ وإن عرض له تردّد في القصّة أو في بعضها فإنّه إذا كان ضابطاً لم يحدث بها، أو يحدث بها ويبيّن التردّد والشكّ»، فالشيخ ربيع كما في هذه القصّة بيّن للسائل الحقيقة ولم ينسب للكردي ما لم يقله بل أحال على الكتاب وهي فضيلة جليّة.

السنة في لبس الخاتم!

قد مرّ بنا من قبل الحديث عن إقامة الشيخ لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتجلّده -حفظه الله- في بيان الحق للناس، وصلابته في نشر السنة وقمع البدعة، ومما رأيت من الشيخ انتباهه عند دخول الزوار عليه إلى مخالفة الكثير منهم للسنة النبوية في لبس الخاتم، ولا أكون مبالغاً إذا قلت إنّ الشيخ لا يفوت فرصة التنبيه أبداً ولو في مجلس واحد، فكم شاهدته وهو ينظر في أصابع الحضور بنظرات ثاقبة وبمجرد ما يلحظ على أحدهم أنّه يضع الخاتم في البصر يشير إليه أن انزع الخاتم وضعه في الخنصر فتلك السنة، وكان دائماً يذكر بحديث علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) الذي رواه «مسلم 2095»، قال: «نهاني رسول الله ﷺ أن أتختم في إصبعي هذه أو هذه قال: فأومأ إلى الوسطى والتي تليها»، ولا شك أنّ السنة في الخاتم أن يلبس في الخنصر وفي ذلك أحاديث منها حديث أنس (رضي الله عنه) عند «مسلم 2095» قال: «كان خاتم النبي ﷺ في هذه وأشار إلى الخنصر من يده اليسرى»، وقد ألّف الحافظ ابن رجب رحمه الله كتاباً فريداً في بابه عنوانه «كتاب أحكام الخواتيم وما يتعلق بها»، فليراجعه من أراد التوسّع أكثر في هذه المسألة المهمّة.

إنّ الاهتمام بهذه السنن والسعي في تبليغها ونشرها دليل على نبل الشيخ وثباته، فالفتن كما مرّ بنا تعصف بالأفئدة فتضعف تعلقها بالسنة وتذهب عنها اتباع الهدي النبوي في الملبس والمأكل وسائر شؤون الحياة، لكن الشيخ كما تقدّم ثابت الجأش، حاضر الذهن، حازم في الإرشاد والإصلاح فلله درّه.

خبره عندي!

من الوقائع التي تؤكد - بما لا يدع مجالا للشك - أنّ الشيخ ربيعاً من أعرف الناس بتفاصيل هذه الفتنة، أنّي كنت في أحد مجالس الشيخ فسأله أخ جزائري سؤالاً مفاده: هناك من يقول عندنا في الجزائر أن عالم البلد الشيخ فركوس هو أعرف بمشايع الإصلاح فوجب الرجوع إليه والأخذ بكلامه، فما هو رأيكم؟! فأجاب الشيخ مباشرة: «عالم البلد خبره عندي»، ولا ريب أنّ العارف بخبايا الدعوة في الجزائر يعرف مقصود الشيخ من كلامه، فقد كان - حفظه الله - ينكر عليه من زمان اشتغاله بالأصول على حساب العقيدة والمنهج، وكان يطالبه بالعناية بالعقيدة، وبحكم معرفة الشيخ الخاصة بالشيخ فركوس وصفه بالضعف! وهو كلام أثبتته لزهري بنفسه، فلا غرابة اليوم عندما يقول الشيخ ربيع: خبره عندي، لأنّ الشيخ بلغه كل شيء من الطرفين، وتحقق عنده أنّ الشيخ فركوس طرف في النزاع وقد تكلم بهذا في مجالسه، ثم جاء جمعة وأكّد بصوته أنّ الشيخ فركوسا من الأطراف الأساسية في النزاع القائم بين الدعاة في الجزائر، وهو دليل يكفي العقلاء ليقنعوا أنّ الشيخ على خلاف ما يروج له المفرقون أنّ البطانة السيئة أحاطت به وأنّه مغلق عليه لا يدري ما يقع في الساحة، ولعلّ معرفته بالوضع هو الذي حال بين الشيخ فركوس وبين زيارة الشيخ ربيع، حتّى لا يقع له ما وقع لجمعة الذي أظهرته تلك الصوتية المسربة في حجمه الحقيقي أمام الشيخ وكذلك لزهري الذي أكّد أنّ الشيخ نصحه ووجهه، أسأل الله أن يبقي الشيخ ربيعاً حصناً حصيناً لنصرة دين الله.

تعلّق الشيخ بالكتب

إنّ الحديث عن علاقة الشيخ -حفظه الله- بالكتب هو حديث ذو شجون، فتعلّق الشيخ بالكتاب يعرفه القريب والبعيد، وقد ضرب أجمل الأمثلة وأروعها في هذا الباب، وفي إحدى زيارتي للشيخ في هذه السفريّة وجدت الشيخ واضعا كتابا كما هي عادته على السرير وهو يحدث الضيوف، فجاء ابنه البارّ عمر -وفقه الله- فرفع الكتاب حتّى لا يزعج الشيخ لأنّه كان في مكان غير مناسب، فانتفض الشيخ بطريقة غريبة -أعجبني بل أضحكنتني- واسترجع الكتاب من يد عمر، وبعدما أخبره عمر بسبب أخذ الكتاب قال له الشيخ معترضا: «لا! اتركه هنا بجنبي!».

وهذه القصّة تذكّرني بكلام الإمام ابن القيم رحمه الله في «روضة المحبّين 51-52»: حيث قال: «وحدثني شيخنا: قال ابتدأني مرضٌ، فقال لي الطبيب: إنّ مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض، فقلتُ له: لا أصبر على ذلك، وأنا أحاكمك إلى علمك: أليست النفس إذا فرحت وسُرّت قوّيت الطبيعة فدفعَت المرض؟! فقال: بلى، فقلتُ له: فإن نفسي تُسرُّ بالعلم فتقوئ به الطبيعة، فأجد راحة، فقال: هذا خارج عن علاجنا! أو كما قال»، فسبحان من خصّ أئمة الدّين بهذه الصفات النبيلة والخصال الجليلة التي أعجزت العقول وحيرت النّاس! فشيخ كبير يمكث الساعات الطوال في المطالعة وهو في سنّ التسعين! ولا يمنعه عن ذلك لا مرض ولا تعب! هذا -لعمري- شيء قريب من الخيال! أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يزيده من فضله وأن يرزقه الصحة والعافية.

ذكاء الشيخ!

عندما أخبرْتُ في تغريدة من تغريداتي أنني وجدتُ الشيخ أفضل من وقت مضى، اعترض المفرقون على كلامي! وكأنني بهم قد فهموا أنني أتحدث عن صحّة الشيخ الجسدية فحسب! وأغفلوا أنني قصدت بكلامي صحّة الشيخ الذهنية، لأنّ أوّل ما أدهشني عند لقائي بالشيخ قوّة ذكائه وسرعة بديهته، وكل هذا كان عند الشيخ من قبل لكن ازداد توقّدا وظهر كالشمس في رابعة النهار، وخذ مثلا أخي القارئ يقرب لك الفكرة: فقد علّم بالضرورة أنّ وفود المفرقين وأتباعهم لم تنقطع عن بيت الشيخ وكل كلامهم انحصر في الطعن في مشايخ الإصلاح والدفاع عن شيوخ التفريق، وكانوا بين الفينة والأخرى يحاولون استعطاف الشيخ ويقولون: أتباع مشايخ الإصلاح يتناولون على الشيخ فركوس ويقولون كيت وكيت! فكيف كان يجيبهم الشيخ يا ترى؟! كان يجيبهم بجواب سهل مختصر قلّ من يتفطن له، فكنت أنظر إلى المناقش وهو يشتكي الطعن في شيوخته، والشيخ يستمع إليه وبمجرد انتهائه يجيبه -حفظه الله-: «كذلك يوجد من أتباع مشايخكم من يتناول على مشايخ الإصلاح فلا تشتكي من جماعة وتترك الأخرى!»، وكنت أستغرب وأتعجب من صمت هؤلاء عندما يقابلهم الشيخ بمثل هذا الجواب المُسكت! لأنهم على علم بأن مشايخهم كذلك يخطئون! وبأنّ أتباعهم قد تناولوا فعلا على مشايخ الإصلاح! فالشيخ بطريقته العجيبة يريد منهم أن يكونوا منصفين وأن يتأكدوا بأن الشيخ مطّلع على ما يجري في الساحة! وأنّ العاطفة عدوّة الإنصاف!

من أجوبة الشيخ المُسكّنة

أسوق قصّة أخرى من قصص الشيخ الباهرة، تثبت نباهة هذا الإمام وحضور ذهنه الثاقب عكس ما يروج له المفرّقون! فقد كنت في أحد المجالس التي ناقش فيها الشيخ أولئك الشباب المتحمّس، فقال أحدهم: مشايخ الإصلاح رفضوا الاجتماع! فأجابه الشيخ مباشرة بلا أدنى تردّد: «رفضوا الشروط ولم يرفضوا الاجتماع»، الله أكبر! ما أحذق هذا الإمام، هذا -والله- من توفيق الله وتسديده لهذا الرجل! وهذا الموقف يضاف كذلك إلى ما ذكرناه سابقا من تلك المواقف الشريفة التي أثبتت حقيقة اطلاع الشيخ -حفظه الله- على مجريات الأحداث، وأنه على دراية كبيرة بأقوال المتخاصمين! والغريب في الأمر -كما مرّ بنا- أن هؤلاء الشباب دائما ما يصابون بالذهول عند سماعهم لأجوبة الشيخ! فتراهم إمّا منكّرين -بالأيمان المغلظة- لتلك الوقائع التي يذكرها الشيخ مع أنّها ثابتة! وإمّا صامتين ناكسي رؤوسهم! وأفضلهم حالا يعترفون بأنّ تلك الحقائق لم تبلغهم! والجميل في القضية أنّك ترى الشيخ في كل الأحوال منتصرا بالحجة، ظاهرا بما آتاه الله من ذكاء قلّ نظيره في أقرانه! ومن المؤسف أن يغيب الصدق والإنصاف عن هؤلاء الشباب! فبعد مناقشتهم مع الشيخ وسماعهم لأجوبته السديدة لا ترى واحدا منهم ينقل ما سمعه وكأنّ الشيخ ربيعا أصبح خصما من خصومهم! وكأنّه -حفظه الله- ليس ذلك العالم الربّاني الذي ترجى الهداية من كلامه وتبرأ ذمّة السائل بجوابه، والله حسيب كلّ من نقش هذا الفكر الغالي في نفوسهم.

الحثّ على طلب العلم

من أجمل ما رأيت في مجالس الشيخ -حفظه الله- في هذه السفيرة، وهو موقف أثر في نفسي تأثيراً كبيراً، ومن تأمل فيه بعين العقل ظهرت له منه معانٍ جلية في إحدى الليالي دخل على الشيخ بعض الشباب الليبي، وبمجرد ما سلّموا على الشيخ قال لهم: «فيكم طلبة علم؟»، وهذه عادة الشيخ فهو حريص على السلفين كحرص الآباء على أبنائهم، بل أكثر! فأجاب الشباب بكل عفوية وصدق: «نحن عوام»، أخي القارئ: تخيل نفسك في مكان الشيخ وقد أجاب أولئك الشباب بمثل جوابهم للشيخ! ما كنت قائلاً لهم؟! انظر -رحمك الله- إلى جواب الشيخ، قال لهم -حفظه الله- مجيباً: «اطلبوا العلم واجتهدوا في تحصيله حتى تنصروا الإسلام وتردّوا على أهل البدع»، إنّ همّة الشيخ العالية تجلّت في جوابه ورسمت صورة جميلة بهيّة، فهو لم يرضَ بالدون في نفسه ولم يرضه لأبنائه، وكأنّه يقول لهم: كيف رضيتهم بهذه المرتبة الدنيّة؟! كيف راق لكم أن تكونوا من جملة العوام ولم تسعوا في رفع الجهل عن أنفسكم! وجواب الشيخ ليس بالأمر الجديد فقد سمعته وسمعه غيري يقول دائماً للشباب: اجتهدوا في تحصيل العلم ولا تكونوا عالة على الناس! نعم إنّها همم الأئمة وقد بلغت القمم، ورحم الله مالكا إذ قال كما في «ترتيب المدارك 1/ 98»: «عليك بمعالي الأمور وكرائمها، واتقِ رذائلها وما سفسف منها؛ فإنّ الله يحبُّ معالي الأمور، ويكره سفسافها»، وإنّ من معالي الأمور أن ينضم الرجل إلى قافلة الطلب، وأن يتوشّح بوشاح الاجتهاد.

فطنة الشيخ وشدة تحريه

من العبث أن أختصر الكلام عن فطنة الشيخ وتحريه في هذه السطور، فكل محب للشيخ لديه أمثلة مشرقة عن هذا الخلق العظيم التي تميّز به الشيخ عن الكثير، ولا بأس أن أضرب مثالا واحدا عايشته في هذه السفرية، ففي إحدى الليالي دخل على الشيخ إخوة سلفيون من بلاد ليبيا، فسألوا الشيخ عن الكلام المُثار عندهم عن فلان وفلان من الدعاة السلفيين، فأجابهم الشيخ كما هي عادته بجواب تستشف منه معاني الذكاء والفطنة التي تميزت بها أجوبة هذا الإمام البحر، قال -حفظه الله- سائلا: «من ينشر الكلام؟»، فأجابه الأخ الليبي أن المتكلمين يعتمدون على كلام ابن هادي فقال الشيخ: «محمد بن هادي كسول لم يؤلف ولن يؤلف، وهو يحارب السلفيين والسلفية»، وصدق الشيخ -سدّد الله قلبه ولسانه- فقبل النظر في مضامين الأخبار والحكم على من رُوّجت في حقّه، -جرحا وتعديلا- لا بد من معرفة حقيقة من ينشرها، والتنبيه إلى مصدر إشاعتها، فبالوقوف على الأسماء يعلم المغزى من نشرها، وتُفهم القضية، وقد رأينا في هذه الفتنة كيف رُوّج لتلك الشهادات الآثمة في حق السلفيين وعندما ظهرت أسماء أصحاب تلك الشهادات اتّضح للقاصي والداني أنّ هؤلاء أوّلا: خصوم لا يجوز الاعتماد على كلامهم، وثانيا: مخدوش في عدالتهم بما علم من كذبهم وانحرافهم، والله المستعان، فالشيخ -حفظه الله- أعطانا درسا تطبيقيا في الثبوت والتحري، وعلمنا كيف نتوصّل إلى معرفة الحقيقة بأسهل الطريق.

إِطْلَاعُ الشَّيْخِ عَلَى الْأَحْدَاثِ

من الأشياء التي اجتهد المفرّقون في تثبيتها في نفوس الأتباع، إيهامهم بأنّ الشيخ مغلق عليه لا تصله الأخبار، أو تصله محرّفة، فصدّق الأتباع هذه الدعوى الباطلة وبنوا عليها معتقدات فاسدة في هذا الإمام، وردّوا أحكامه بسبب هذه الأوهام، ولو أنّ القوم صدّقوا مع أنفسهم وشهدوا بما رأوه من هذا الشيخ وسمعوه لنقلوا أعاجيب مما ينقض دعواهم الباطلة، أما أنا فأقول وأشهد: أنّ الشيخ في هذه الفتنة وفي هذا السن المتقدمة درس القضية دراسة دقيقة وسبر أخبارها وعرف تفاصيلها، وكان يسأل الداخل والخارج عن تفاصيل ما يجري في البلاد الإسلامية، ويناقد الحضور مناقشة دقيقة مبنية على دراية بما يقع في بلادهم، فكان يسأل كل سلفي عن بلاده ويبحث عن أخبار السلفيين البارزين هناك ويذكر أسماءهم وأسماء خصومهم، وقد جربت بنفسني الشيخ فوجدته مطلعاً على كل صغيرة وكبيرة، وقد سمعته مرة يخبر أحد الحضور عن خرجة ابن هادي في الحرم المكي في رمضان عندما رافقه الحرس العسكري، واستنكر -حفظه الله- فعلته هذه وما أحاط بها من تصوير وتفاخر الأتباع بالكثرة! وهذا أنموذج من الأخبار التي يذكرها الشيخ عن خصومه فهل باستطاعة أحد من الأتباع إنكار كلام الشيخ ونفي ما ورد على لسانه في قضية ابن هادي في الحرم؟! لا طبعاً! لأنّها واقعة شهد عليها الجميع، ومن أعجب ما سمعته في مجالس الشيخ مع الشباب الثائر من أتباع المفرّقين أنّ الشيخ في مناسبات كثيرة يخبرهم بأشياء عن شيوخهم فما يكون منهم

إلا نفيها والاعتراف بأنها لم تبلغهم وأحيانا يقسمون بالله على أنها لم تقع، فمرة قال لهم الشيخ: إذا كان لزهري يحترمني فلماذا يحذف نصائحي من منتداه؟ فأنكروا وأقسموا بالله أنه لم يُحذف! مع أن الحادثة ثابتة لا ينكرها أحد، وفي مرّات كثيرة يقول لهم الشيخ: «ابن هادي قال لهم لا تجتمعوا»، وكان جواب أكثرهم: لم نسمع بهذا يا شيخ، والبعض أنكر ونفى أن يكون هذا ثابتاً! فكنت أقول في نفسي: هل هؤلاء يتقصّدون الكذب أم هم صادقون في نفيهم؟! وكنت أرجح أن أكثرهم بعيدون عن هذه الحقائق، وإنما ساقهم سوط الشيوخ إلى بيت الشيخ!

وأذكر جيّداً أن ما من ليلة دخلتُ فيها على الشيخ -حفظه الله- إلا وسألني عن الجديد في السّاحة الدعوية في الجزائر! وكان أكثر استفساره عن الشباب وهل هناك تراجع منهم، وكان يستبشر ويفرح عندما أخبره بتحسّن الأوضاع وتراجع المنخدعين بالفكر التفريقي، وكان يسأل كل ليلة عن شيوخ التفريق هل رجعوا هل تواصلوا مع إخوانهم! وكان يحزن كثيراً عندما يعرف أنهم ركبوا رؤوسهم، وكان دائماً يدعو لهم بالهداية، ومن شدّة حرصه -وفقه الله- سمعته يوصي أحد طلبة العلم ويلحّ عليه أن يوافيه بكل جديد عن أخبار بلاده، وقال: «أيّ شيء أرسله على البريد!»، وهنا لطيفة من لطائف الشيخ: فالشيخ -حفظه الله- لا يعرف إلا البريد، وهذا من رحمة الله به! فلم يُشغله -سبحانه- بوسائل التواصل التي أفسدت الناس، والله المستعان، أسأل الله أن يكرمه بالحياة السعيدة، وأن يرزقه النظر على وجهه الكريم فأقلّ ما نقدمه لهذا الإمام دعوة صادقة.

حكمة ربّانية!

قبل اشتعال نار الفتنة في الجزائر وفي آخر لقاء جمعني بجمعة في مقر التصفية، سمعت منه كلمة عظيمة لا يزال صداها في أذني! قال وهو يتحدث عن مشايخ الإصلاح: «إن كانوا رجالا فليدخلوا الآن إلى قسنطينة»، يقصد أن قسنطينة ولاية محرّرة تابعة لمملكة جمعة، وكان يعول عليها كثيرا وقد أخطأ عبد الحميد خطأ عظيما عندما اقترب من سياجها! والشاهد من إيراد هذه القصّة: أنّي زرت الشيخ في ليلة 29 رمضان فوجدت من بين الضيوف شابّا من قسنطينة سأل الشيخ عن عبد المجيد جمعة، وكان سؤاله كما نشره هو لاحقا: «الدكتور عبد المجيد جمعة لا يزال يحذر من كل من يدافع عن مشايخ الإصلاح ولا يقبل طعوناته، وأمر بهجرهم والتحذير منهم؟»، فأجابه الشيخ وأنا حاضر أستمع: «لا تلتفتوا إلى تحذيرات جمعة وامضوا في الدعوة إلى الله ولا يثبطنكم، وحذروا منه وبَيِّنوا للناس ما عنده من أخطاء»، وأوّل ما تبادر إلى ذهني بعد تحذير الشيخ: أن الله أراد بحكمته البالغة أن يخرج أوّل تحذير من جمعة من نفس الولاية التي جعلها جمعة منصّة هجوم على إخوانه، والله في خلقه شؤون! ثم سألت الشاب هل هناك في قسنطينة من موقفه مع الشيخ؟! فقال: نعم هناك الكثير الكثير! وبعدها تأكد عندي وبعد اتصالات ومنشورات أن الكثير من إخواننا قد أعلنوا موقفهم المشرف وأظهروا نصرتهم للمظلومين، وقد بقي البعض كاتما موقفه وإلى الآن لم يتشجّع! لكن -إن شاء الله- سيرى السلفيون من هؤلاء ما يُفرحهم.

الخاتمة

ممّا سبق نستطيع أن نقول: إنّنا عشنا لحظات جميلة مع سطور هذا المقال الذي حكى قطعة ذهبية من تاريخ الإمام ربيع، على أمل أن تُضاف هذه القطعة إلى كتاب: «المجموع الحافل»، وهو كتاب جمعت فيه شيئاً كثيراً من مناقب الشيخ، ونحسب هذا الرجل ممّن أفنى حياته من أجل إعلاء كلمة الله، وممّن عاش بعلمه وعاش به الناس، يقول أبو قلابة رَحِمَهُ اللهُ كما في «جامع بيان العلم 878»: «الْعُلَمَاءُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ عَاشَ بِعِلْمِهِ وَلَمْ يَعِشْ النَّاسُ بِهِ مَعَهُ، وَرَجُلٌ عَاشَ النَّاسُ بِعِلْمِهِ وَلَمْ يَعِشْ هُوَ بِهِ، وَرَجُلٌ عَاشَ بِعِلْمِهِ وَعَاشَ النَّاسُ بِهِ مَعَهُ»، ومن كان هذا حاله انتفعت الأجيال بأخباره واعتبرت بسيرته، ومنه تتأكّد على المحبّين ضرورة بيان محاسن من أعطى كل ما لديه في سبيل نصرته الحق والدفاع عن أهله، والوقوف مع المظلومين مهما تباعدت بهم الديار، فردّ جميل الشيخ دين ثقیل على كواهل السلفيين، ولا خير فيمن قلب للشيخ ظهر المجنّ وكسر قلمه ولم يغمسه في محبرة الوفاء، وهذا لا يفعله فيما أحسب رجل وقر في قلبه حبّ صادق لهذا الإمام الذي صدّق هذه الدعوة فَوَقَفَ في جميع المعارك الطاحنة في الصفوف الأولى نصرته لها ولأهلها، نسأل الله أن يجزيه خير الجزاء، والحمد لله رب العالمين.

كتبه: أبو معاذ محمد مرابط

مساء الثلاثاء: 19 ربيع الأوّل 1440 هـ

الموافق لـ: 27 / 11 / 2018 نصراني

الفهرس

3	المقدمة.....
6	زيارة عجيبة في فترة عصيبة.....
10	صحّة الشيخ.....
11	عائلة الشيخ كرم وضيافة! عقل وظرافة.....
15	أنا لستُ باطنياً.....
16	شدة تعلّقه بالتعليم حتّى في زمن الفتن!.....
17	﴿كونوا ربّانيين﴾.....
19	إحياء السنن في القريب والبعيد.....
20	السترة في الصلاة.....
21	تركيز الشيخ!.....
22	لكنّهم لم يسمعوا نصائحني!.....
23	لكن لحيتك صغيرة!.....
24	نهمّة الشيخ في القراءة!.....
25	عودة الشيخ إلى سابق نشاطه.....

- 27 هل الخضر نبيّ أم وليّ؟
- 28 حكمة الشيخ ونظرته البعيدة!
- 30 ذاكرة قويّة!
- 31 هل تُبدّعون هؤلاء؟!
- 32 لفظة مهمّة تُعين الداعية إلى الله!
- 33 كيف يتصرّ للسلفية من يحبّ الخلاف؟!
- 34 قيمة الوقت عند الشيخ
- 35 فقاعات الصابون!
- 36 تَفْطُنُ الشيخ لخطر البدعة وأهلها
- 38 هكذا واجه الإمام فتنة التفريق!
- 41 مسألة مهمّة حول حكم الإقامة في بلاد الكفر
- 42 الصبر على ابن هادي!
- 43 إقرار الأخطاء من أعظم الأخطاء!
- 44 ورع الشيخ في الفتوى
- 45 التحقيق العلمي عند العلامة ربيع!

- 46 هل أيّدوه؟!
- 47 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾
- 48 كونوا مع الحسن رضي الله عنه
- 49 تحسّر الشيخ!
- 50 فليعطوا دروساً في التراجع
- 51 كيف نظر الإمام ربيع إلى فتنة ابن هادي؟!
- 53 ضبط الشيخ!
- 54 السنّة في لبس الخاتم!
- 55 خبره عندي!
- 56 تعلّق الشيخ بالكتب
- 57 ذكاء الشيخ!
- 58 من أجوبة الشيخ المُسكّنة
- 59 الحثّ على طلب العلم
- 60 فطنة الشيخ وشدة تحرّيه
- 61 إطلاع الشيخ على الأحداث

63حكمة ربّانية!

64الخاتمة

65الفهرس

